

وأشاروا إلى الطريق فدلوا      فلهذا قد أصبحوا في البرايا      كل صعب ينالهم فهو سهل  
لم يزل ذكرهم على الدهر يتلى      ولكل القلوب يجلو ويجلو  
فبهم يرفع البلاء عن الخُل      — ق ويهدوا مخافة أن يضلوا

إلهي وقف السؤال ببابك ، ولاذ المذنبون بجنبك ورفع ذوو الحاجات قصص فاقتهم إليك  
نكس العصاة رؤوس الانكسار بين يديك ، انقطعت حجج المقصرين عن الاعتذار إليك ،  
أرست سفينة المساكين على ساحل بحر كرمك ، وكلهم يرجون الجواز إلى ساحة فضلك  
ونعمك ، امتدت أيدي السائلين إلى وابل غيث جودك ، تقلقت قلوب الخائفين من إزعاج  
وعيدك ، فكيف يجيبون وقد عمّ عفوك ورحمتك سائر عبيدك ؟ إلهي فمن للسائلين إذا ردوا ،  
ومن للعاصين إذا طردوا عن بابك وصدوا ، ومن للمتخلفين إذا قطعوا ، ومن غيرك يقبل  
التائبين إذا رجعوا . إلهي وصل العارفون بالمعرفة إليك ، قام المتجهدون للخدمة بين يديك .  
إلهي خضع المتكبرون من هبة جلالك ، خشع المتجبرون لسطوة كمالك ، ارتاح المشتاقون  
إلى مشاهدة جمالك . إلهي تقطعت أكباد المحيين في طلبك ، فاز القائمون بطيب خطابك ،  
ربح العاملون بثوابك ، حضر المراقبون في حضرة اقتربك . إلهي ندم المفرطون على  
تقصيرهم في خدمتك ، خجل العاصون وأطرقوا حياء من مراقبتك ، أطرق المذنبون من جلال  
هيبتك ، تمزق الخائفون من عظيم سطوتك ، إلهي إن كنت لا ترحم إلا القائمين فمن  
للنائمين ، إلهي إذا لم تنظر إلا للعاملين فمن للمقصرين ، إلهي إذا لم تغفر إلا للمطيعين فمن  
للمذنبين ، إلهي رد شارد الحائرين إلى أبواب معرفتك ، اهد قلوب الضالين بأنوار رأفتك  
أدخلهم جميعاً في ظلّ عفوك ورحمتك ، آوهم إلى ركن تجاوزك ومغفرتك برحمتك يا أرحم  
الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

### المجلس الحادي والثلاثون

#### في مناقب الصالحين رضي الله عنهم

الحمد لله الذي فتح أقفال الصدور بمفاتيح السرور والأفراح ، وخص نسيم السحر بطيب  
الهبوب فأحيا به القلوب وأرواح الأرواح ، سقى بساتين قلوب أوليائه بغيث جوده ونعمائه

فانبسط جزيل عطائه وساح ، انطلق بلابل تمجيدهم على أغصان توحيدهم فأثنت بشكر معبودهم في المساء والصباح ، عطر أزهار أسرارهم بأنفاس أذكارهم ففاح أرجها الفياح ، جمعهم تحت خيمة الليل في حضرة قربه وروق لهم شراب حبه وسقاها بكؤوس السماح ، فإذا صفقت أوراق الأشجار وشبب النسيم وغنى الهزار بصوته الرخيم حنّ كل مشتاق إلى عهده القديم وارتاح ، فمنهم من سكر وصحا ، ومنهم من فنى رسمه وانمحي ، ومنهم من هام مترنحاً ، ومنهم من كتم ، ومنهم من باح ، ومنهم من لازم الخضوع والانكسار ، ومنهم من تهتك ولبس ثوب الاشتهار وكلهم في خلوة الأسحار قد مزق الأطمار ، وهتكوا في محبته الأستار ، فسامحهم صاحب الدار وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ : [البقرة : ١٩٨] .

|                            |                             |
|----------------------------|-----------------------------|
| إذا غلب الوجد والافتضاح    | لأهل الهوى والجوى لا جناح   |
| فكم في المحبة من هائم      | يطيل النحيب وييدي النواح    |
| وكم في دجى الليل من سادة   | لهم في الصباح وجوه صباح     |
| وكم في المحبة من كاتم      | ينم عليه نسيم الصباح        |
| فمن باح بالوجد في حبه      | فذاك الذي في هواه استراح    |
| فقم يا لييب بيباب الحبيب   | فثمّ طيب يداوي الجراح       |
| وقم واسهرن في الدجى واعتذر | إلى الحب واسمع منادي الفلاح |
| وإن تك بالذنب مستوحشاً     | فهم في الحقيقة أهل السماح   |

[قال عبد الله بن المبارك رحمه الله عليه] : حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام ، فأثيت مكة شرفها الله تعالى فإذا بالناس قد خرجوا يستسقون أول يوم وثاني يوم وثالث يوم وأنا معهم فلم يسقوا فتركهم ومضيت إلى الحجر فدخلت ، فإذا على البلاطة الخضراء شخص أسود نحيل الجسم مصفر اللون ، وعليه خلقتان متزري أحدهما ومرتد بالأخرى ، وقد بكى وانتحب حتى بلت دموعه ثوبيه ، وهو رافع طرفه إلى السماء ، ويقول : إلهي أخلقت الوجوه كثرة الذنوب والعيوب ومنعت عبيدك القطر من كثرة المعاصي والخطايا ، وأذهبت خلقتك بالمحل والقحط وابتليتهم بالجوع والجهد ، وأنت عالم بالأحوال ، فقد قلقت الأطفال ، وهلكت المواشي والعيال ، فأقسمت عليك بجاه محمد ﷺ إلا ما سقيتنا الغيث الساعة ، وقد توسلت بك إليك ، وجعلت معتمدي عليك ، فهب للحاضرين ذنوبهم ولا تؤاخذهم بجرائمهم ، يا رباه يا رباه الساعة الساعة ، قال : فما استتم كلامه حتى تراكت السحب ، وجادت بالقطر من كل جانب ومكان فجلست أبكي حتى خرج من الحجر فاتبعته حتى عرفت الموضع الذي دخل فيه

فعلمت الباب ورجعت إلى منزلي ، فلم يأخذني نوم طول ليلتي . فلما أصبحت صليت الصبح بغلس ، وأتيت الموضع فدخلت ، فإذا رجل حسن الهيئة فسلمت عليه فردّ عليّ السلام ، وقال هل لك من حاجة يا أبا عبد الرحمن ؟ قلت : نعم ، أريد شراء غلام ، فقال : عندي عشرة غلمان فاختر منهم من شئت فصاح بأحدهما فخرج غلام سمين ، فجعل يصفه لي ، فقلت : ليس من حاجتي ، فعرض آخر وآخر إلى أن عرض العشرة ، وأنا أقول : ليس من حاجتي ، فقال : لم يبق عندي إلا غلام أسود ضعيف الجسم متغير اللون ، إن ضحك الناس بكى ، وإن اشتغل الناس بأشغالهم صلى ، لا ينام الليل ، ينادي في بعض أوقاته بالحسرة والويل لا يصلح لخدمة أهل الدنيا من كثرة الضعف والبلى ، ومع هذا فإن قلبي يحبه ، وقد استبركت بنظره ، فصاح ميمون ، فقال إن شاء الله تعالى ميمون فخرج فنظرته فإذا هو صاحبي ، فقلت : هذا أريد ، فقال : ليس إلى بيعه من سبيل ، قلت : لم تبعه ؟ قال : قد أنست به ، واستبركت بطلعته ومع هذا إنه قد حمل عني مؤنته ، فوالله ما يأكل عندي شيئاً إلا بعمل الشريط والخص فيعمل كل يوم بنصف دانتق ، فإن باع أفطر وإلا بات طاوياً . وقد أخبرني الغلمان أنه يحبى الليل كله ، فقلت : والله لئن لم تبعنيه لأتيتك بسفيان والفضيل ، فقال : إن كان هذا قضيت حاجتك فاشتريته منه ، وأخذت بيده وسرنا في الطريق فالتفت إليّ ، وقال لي : مولاي ، قلت : لبيك ، فقال : لا تلبنني فإن العبد أحق بالتلبية للمولى ، ثم قال : سألتك بالله لم اشتريتني وأنا ضعيف نخل الجسم لا أقوى على الخدمة وقد أخرج سيدي إليك أجود مني ؟ فقلت : والله لا أستخدمك وإنما أكون لك خادماً ، فقال : سألتك بالله إلا ما أخبرتني بحالك معي فأخبرته بالخبر ، فقال لي : ينبغي أن تكون عبداً صالحاً ، فإن لله تعالى في خلقه نجباء وأولياء لا يكشف شأنهم إلا لمن ارتضاه من عباده ، قال فتمشيننا إلى أن عبرنا على مسجد ، فقال لي : يا مولاي هل لك أن تأذن لي أن أصلي في هذا المسجد ركعتين ؟ قلت له : الساعة نسير إلى منزل الفضيل بن عياض فتركع فيه ما بدا لك ، قال : وما علمي بأن قد بقي من عمري ما يوصلني إلى منزل الفضيل ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من فتح له باب خير فليتم فإنه لا يدري متى يغلق عنه » . قال : فدخلنا المسجد فركع وركعت وأطال في الصلاة وأنا منتظره ، فلما سلم قال : يا مولاي قرب الأجل وانقطع العمل ، يا مولاي إنما كانت المعاملة طيبة بيني وبينه ، وقد علمت أنت وسيعلم غيرك وغيرك ولا حاجة لي في إفشاء السرّ وقد استودعتك الله وخر ساجداً ، فما زال يبكي ويتشهد إلى أن سكن حسه فحركته فإذا هو ميت رحمه الله عليه فتركته ومضيت إلى الفضيل وسفيان فأخذنا في أمره ما وجب ودفناه في المعلاة وانصرفنا ، وفي قلبي لهيب النار فجئت إلى منزلي فلما كان الليل وقضيت وردي ونمت

فإذا بميمون قد أقبل في شملتين من الحرير وهو يتبسم وفي يده شيء فسلم عليّ وقال لي : يا مولاي حضرت بين يدي مولاي الكبير فشرحت له حالي ووزنك لثمني من غير منفعة انتفعت بها ولا خدمة ، فقال لي : يا ميمون إني أعلم السر وأخفى ، وأعلم ما في الضمائر القلوب وإنه لم يشترك إلا لوجهي وإجلالاً لكرامتي ، وقد أعتقته من النار بسببك وكرامتك عليّ وهذا ثمني فخذ . قال ابن المبارك : فبكيت وانتحبت واستيقظت من نومي والدراهم في يدي وأنا أبكي فوالله ما ذكرته قط إلا بكيت على فراقه :

|                              |                                |
|------------------------------|--------------------------------|
| تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل | ففي حبه يخلو التهتك والذل      |
| تذلل له تحظى برؤيا جماله     | إذا رضي المحبوب صح لك الوصل    |
| أدار على العشاق خمرة قربه    | فطاب لهم فيها الصباية والقتل   |
| وقال لهم هذا جمالي تمتعوا    | وها خلع الإحسان والجود والفضل  |
| سكارى حيارى واقفين ببابه     | وأجفانهم منها المدامع تنهل     |
| فإن شئت أن تحظى برؤيا جماله  | تقدم وإلا فالغرام له أهل       |
| فوالله ما في الكون يعشق غيره | هو السؤل والمطلوب والقصد والكل |

[قال مالك بن دينار رحمه الله] : أصابني في بعض أسفاري عطش شديد فملت إلى بعض الأودية طمعا في الماء ، فسمعت صوتاً يهدر فقلت : هذه سباع مقبلة فوليت هارباً فناداني هاتف من بين الجبال : يا هذا ليس الأمر كما ظننت إنما هو وليّ الله سبحانه وتعالى قد عظمت زفرته واشتدت حسرته فارتفع صوته وعلا نحيبه فعدت إلى طريقي فإذا أنا بشاب قد أذابته العبادة حتى عاد كالخلال فسلمت عليه وأخبرته بعطشي . فقال : يا مالك ما وجدت في المملكة قطرة ماء ، ثم قام إلى صخرة فضر بها برجله وقال لها : اسقنا ماء بقدرة من يحيي العظام وهي رميم فإذا الماء يخرج من الصخرة كما يخرج من العين فشربت حتى رويت ثم قلت : أوصني بشيء أنتفع به ، فقال : يا مالك كن لمولائك طائعاً في الخلوات حتى يسقيك الماء في الفلوات ثم ولي عني :

|                               |                           |
|-------------------------------|---------------------------|
| دمع أضر بمهجة المشتاق         | وجرت سوابق دمعته المهرق   |
| صب إذا ما الليل أسبل ستره     | نادى بصوت في الدجى مشتاق  |
| يا عالماً بسريرتي وبلستي      | وبما أجن من الأسى وألاقي  |
| لو صرت نضواً في المحبة مغرماً | ما حلت عن عهدي ولا ميثاقي |
| فامنن بعفوك لي فإني مذب       | مالي سواك لزلتي من راقبي  |

[قال بعض السادة رحمه الله] : رأيت غلاماً في البادية وهو قائم يتعبد وليس معه أحد ، منقطعاً

عن العمارة والناس فسلمت عليه فردّ عليّ السلام ، فقلت له : يا فتى أنت في مكان منقطع بلا معين ولا رفيق . قال : بلى وعزة ربي معي المعين والرفيق ، قلت : وأين المعين أو الرفيق ؟ قال : هو فوق عي بعزته ومعني بعلمه وحكمته وبين يدي بهدايته وعن يميني بنعمته وعن شمالي بعظمته . فلما سمعت هذا الكلام قلت : هل لك في المرافقة ؟ فقال : هيهات مرافقتك تشغلني عن خدمته وما أحب أن يكون هذا ولي ملك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، قلت له : أما تستوحش في هذا المكان ، فقال لي : يا هذا من كان المولى حبيباً وأنيسه كيف يستوحش ، قلت : من أين تأكل ؟ قال : يا هذا غذائي بلطفه في ظلمة الأحشاء صغيراً أفلا يكفلني كبيراً ولي عنده رزق معلوم وله وقت محتوم فسألته الدعاء ، فقال لي : حجب الله طرفك عن معصيته وملاً قلبك بخشيته ولا جعلك ممن يشتغل بغيره عن خدمته ثم ذهب ليقوم فتعلقت به وقلت له : يا أخي متى ألقاك فتبسم وقال : أما بعد هذا اليوم فلا تحدث به نفسك في الدنيا ويوم القيامة يوم يجتمع فيه الناس كلهم فإن كنت ممن يلقي فاطلبي في جملة الناظرين إلى الله عز وجل قلت له : ومن أين عرفت ذلك ؟ قال : به وعزته ، وذلك أني غضضت طرفي عن المحرمات ومنعت نفسي من تناول الشهوات وخلوت بخدمته في الليالي المظلمات ، فعوضني النظر إلى وجهه الكريم ، ثم غاب عني فلم أراه بعد ذلك :

|                             |                          |                             |
|-----------------------------|--------------------------|-----------------------------|
| أترى عبدكم يرى بالمصلي      | قبل يقضي أسى بكم يتملى   | سمعوني وأرسلوا لي جوابا     |
| إن تكن صادقاً فأهلاً وسهلاً | قلت أمشي على جفوني إليك  | فعسى بالحبيب نجم شملا       |
| ثم أشري منه الوصال بروحي    | قل لي وصله من الروح أغلى | يا طريداً عن بابنا قبل الأر |
| ض لنا وعفر الخد ذلاً        | إن ذل المحب خير شفيح     | لحبيب قد صد عنه وولى        |
| لا تظن الدموع تنفع إن لم    | تك تجري من القلوب وإلا   | ليس للدمع منة في هوانا      |
| فابك مهما أردت طلا ووبلا    | قلت للروح ودعيني وروحي   | ثم للجسم خلني فتخلنى        |
| وإذا بالحبيب قد رفع الحج    | ب تعالى جماله وتجلى      | ثم نادى أين المحب عبيدي     |
| ادن مني وبالوصال تملنى      | يا عبيدي أطلت صبرك عني   | أتسلت قلت حاشا وكلا         |
| عطف السيد الكريم على الع    | د وما زال للتعطف أهلا    | ودعاه في مجلس الأنس جهرا    |
| وعليه كأس التواصل يجلى      | ومنادي القبول منه ينادي  | هكذا هكذا يكون وإلا         |

فعلى أشرف النبيين صلوا فعليه رب الخلائق صلى

[قال إبراهيم الخواص رحمه الله عليه] : حججت سنة من السنين وكانت سنة كثرة الحرّ والسموم ، فلما كان ذات يوم وقد توسطنا أرض الحجاز انقطعت عن الحاج وغفوت قليلاً فلم أشعر إلا وأنا وحدي في البرية فلاح لي شخص فأسرعت إليه فلحقته وإذا هو غلام لا نبات بعارضيه وجهه كالقمر المنير أو الشمس بالضاحية وعليه أثر الدلال والترفه ، فقلت له :

السلام عليك ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا إبراهيم ، فتعجبت منه أكثر العجب وقلت له : من أين تعرفني ولم ترني قبلها ؟ فقال : يا إبراهيم ما جهلت منذ عرفت ولا قطعت منذ وصلت ، فقلت له : ما الذي أوقعك في هذه البرية في مثل هذه السنة الكثيرة الحر والسموم ؟ فقال : يا إبراهيم ما أنست بسواه ولا وافيت غيره وأنا منقطع إليه بالكلية مقرر له بالعبودية ، فقلت له : من أين المأكل والمشروب ؟ قال : تكفل لي به المحبوب ثم أجابني ودموعه تنحدر على خديه كاللؤلؤ الرطب ، وأنشأ يقول :

من ذا يخوفني بالبرّ أقطعه إلى المحبّ وقد قدّمت إيماناً  
الحب أفلقني والشوق أزعجني ولا يخاف محب الله إنساناً  
فهل لصخران سني اليوم تحقرني دع عنك عدلك بي قد كان ما كانا

ثم قال : يا إبراهيم أنت منقطع عن الحاج ؟ فقلت له : نعم ، قال إبراهيم : فنظرت إلى الغلام قد ملح بطرفه إلى السماء وهمهم بكلمات فعند ذلك لحقتني سنة من النوم فلم أفق إلا وأنا في وسط الحاج ورفيقي يقول لي : يا إبراهيم احذر أن تقع عن الراحلة فما أعرف أن الغلام صعد إلى السماء أم نزل في الأرض ، فلما انتهيت إلى الموقف ودخلت الحرم الشريف وإذا أنا بالغلام متعلق بأستار الكعبة وهو يبكي ويقول :

تعلقت بالأستار والقبر زرتي وأنت بما في القلب والسرّ أعلم أتيت إليه ماشياً غير راكب  
لأنني محبّ في هواك متيم هويتك طفالاً حيث لا أعرف الهوى فلا تعذلوني إنني متعلم

وإن كان قد حانت إليّ منيتي لعل بوصل منك أحظى وأغنم

ثم وقع ساجداً وأنا أنظر إليه فأطال السجود فأتيت إليه وحركته فإذا هو ميت رحمه الله تعالى فتأسفت عليه كل الأسف ومضيت إلى راحلتي وأخذت ثوباً واستعنت بمن يغسله فأتيت إليه فلم أجده فسألت عنه الحاج جميعاً فلم أجد أحداً يقول رآه حياً ولا ميتاً فعلمت أنه مستور عن الخلق وأنه لم يره أحد غيري فأتيت إلى مكاني وغفوت فرأيت في المنام وهو في موكب عظيم وهو في أوائهم وعليه أثر الدلال والترفة ، فقلت له : أأنت صاحبي ؟ فقال : نعم ، فقلت له : أأنت مت ؟ قال : قد كان ذلك ، فقلت له : لقد طلبتك حتى أكنفك وأصلي عليك وأدفنك فلم أجذك ؟ فقال لي يا إبراهيم اعلم أن الذي من بلدي أخرجني ، ولمحبته شوقني ، وعن أهلي غربتي ، هو الذي تولاني وكفنتني ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني بين يديه ، وقال : ما بغيتك ؟ فقلت : إلهي أنت أعلم ، فقال : أنت عبدي حقاً حقاً ، ولك عندي أن لا أحتجب عنك أبداً ، ثم قال لي : ما تريد ؟ فقلت : أريد أن تشفعني في القرن الذي أنا فيه ، قال : قد شفعتك فيه . قال إبراهيم : ثم صافحتني فاستيقظت بعد المصافحة

وقضيت ما كان علي من الحج ونسكه ، ثم سرت مع جملة الحاج فما أجد أحداً إلا يقول لي :  
عجب الناس من طيب رائحة يدك . قال الناقل لهذا الحديث : ولم تزل رائحة الطيب تخرج من  
يد إبراهيم حتى قبض رحمة الله عليه :

|                                    |                                 |
|------------------------------------|---------------------------------|
| قلوب بتقوى الله والذكر عامره       | وأوجههم بالقرب والبشر زاهره     |
| يناجون مولاهم بفرط تضرع            | وأنوارهم من بهجة الحق باهره     |
| يناديهم الرحمن أنتم أحبتي          | وأرواحهم شوقاً إلى القرب طائرته |
| إذا اجتمعوا في خلوة الذكر في الدجى | بمقعد صدق والزجاجات دائره       |
| ترى أعين العشاق نحو حبيبهم         | إلى ذلك الوجه المقدس ناظره      |
| فيا نفس هذا مشرب القوم فاشربي      | عسى أن تكوني عند ذلك حاضره      |
| وتحظى برؤيا من بحسن جماله          | غدت ألسن المداح تتلو مفاخره     |
| رسول أتى والشرك كالليل حالك        | فجلى بأنوار الرشاد دياجره       |
| رؤوف رحيم شاهد متوكل               | سراج منير فاز من كان زائرته     |
| فلو شاهدت عيناك زوَّار قبره        | وأعينهم كالسحب بالدمع ماطرته    |
| وتأتى وفود العاشقين صباية          | إلى نحوه من كل فج مبادره        |
| لتهدي نفوساً حجبت في ظلامها        | وكانت ضلالاً قبل ذلك حائرته     |
| وهبت لها من ذلك الحيّ نسمة         | وأنفاسها من طيب رياه عاطره      |
| فيا أيها المختار من آل هاشم        | ومن كرم الله الكريم عناصره      |
| أغشنا جميعاً في غد بشفاعة          | فأنت لكسر القلب ما زلت جابره    |
| عليك سلام الله ما ذرّ شارق         | ولاحت نجوم في دجى الليل نائره   |

### المجلس الثاني والثلاثون

في مناقب الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه

الحمد لله المعروف بالقدم قبل وجود الوجود ، الموصوف بالكرم والفضل والوجود ، المنزه في  
وحدانيته عن الأبناء والآباء والحدود ، المقدّس في ذاته عن الصاحبة والمصحوب والولد

والمولود ، العليم بأعداد الرمل والقطر وحبات السنبل والعنقود ، البصير بحركات الذرّ في البحر والبرّ تحت ظلام الديجور والليالي السود . الحكيم الذي فجر الأنهار من صمّ الجلمود ، وأخرج رطب الثمار من يابس العود ، لا تمثله الأفكار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا ينهيه المقدار ، ولا تفنيه الأعصار ، ولا تدركه الأبصار وهو الواحد المعبود . المعطي الذي لا مانع لما أعطى ولا دافع لما قضى ، الكريم الذي جاد لعبده بجزيل رفقته وكم رآه عن بابه معرضاً . الحليم الذي ستر العاصي بحلمه ورأفته وقد رآه لمعصيته متعرضاً . الغفار الذي يغفر الذنوب ويستر العيوب ويعفو عما مضى ، القهار الذي قهر الجبابة وكسر الأكسار وضرب بسوطه بعباده من سلّ سيف عناده وانتضى . فسبحان من حير الأفكار في مدارك سبجات جلاله العظيم ، وأذهل العقول عن الوصول إلى كنه ذاته القديم ، وأخرس الألسن عن عبارات إشارات سرّ أفعاله بعد الفصاحة والتكليم . وأدهش الخواطر عن الإحاطة به فلا يرام بالتوهم ؛ فهو الكريم الماجد القديم ! الواحد المنزه من الولد والوالد ! المقدس عن المشارك والمساعد ، المتعالي عن المشابه والمماثل والمضاد والمعاند ، الشكور على جميع النعم المحمود بجميع المحامد ، الذي أسبل ستره الجميل على عبده العاصي الذليل ، وهو إليه ناظر ومشاهد ، فهو المعروف بالربوبية الموصوف بالإلهية ، المنفرد بحقيقة الوجدانية ، تنزهه عن الأوهام الخيالية وتعزّز في بقاءه عن الفناء والمثلية ، عالم بكل خفية وجلية ، حارت العقول في عظمتة فما عرفت له أينية ، وكلت الأفكار عن إدراك صمديته فلا تعرف بالعلوم العقلية فسبحانه من إلّه تعالى على المماثل والمناسب ، وجلّ عن المشارك المصاحب ، يقبل التائب ويحبب الآيب ، وليس على بابه بواب ولا حاجب ، من أمل سواه فهو الشقي الخائب ومن أناخ بباب كرمه ظفر بنيل المآرب . ومن ذاق حلاوة أنسه رأى من لطفه عجائب الغرائب . ومن أعرض عن سواه رفعه ورقاه إلى أرفع المراتب . يزيل الضرر ويجبر من انكسر وينادي في السحر هل من مستغفر هل من تائب . ويستعرض حوائج السائلين ويجود على التائبين بخلع القبول والمواهب :

|                                              |                                       |
|----------------------------------------------|---------------------------------------|
| وَعَنْ نَدَّ يَعْدَّ وَعَنْ مَصَاحِبِ        | إِلَّهِ جَلَّ عَنْ شَبِّهِ وَمِثْلِ   |
| يَنَازِعُهُ وَلَا ضِدَّ مُحَارِبِ            | تَفَرَّدَ فِي عِلَالِهِ فَلَا شَرِيكَ |
| وَجَلَّ عَنِ الْمُمَاطِلِ وَالْمُنَاسِبِ     | تَحْجُبُ حَيْثُ شَاءَ فَلَا يَدَانِي  |
| وَهَلْ يَخْفَى الْحَبِيبُ عَلَى الْحَبَائِبِ | تَجَلَّى لِلْقُلُوبِ فَلَيْسَ يَخْفَى |

فسبحانه من إلّه شهدت له السموات وما فيها من العجائب . وأقرّت بربوبيته الأرضون في مشارقتها والمغارب . واصطفى محمداً ﷺ نبيه المبعوث بالدين الواصب الموصوف بأحسن

الأوصاف وأجل المناقب . الذي شرف الله به الوجود وكمل به السعود وبلغه أسنى المطالب والمآرب . واختار أصحابه النجباء وخلفاء الكرماء الأخيار الأطياب وخص التابعين لهم بإحسان من أمته القائمين بشريعة الإسلام على توالي الزمان واختار منهم أربعة أقاموا قواعد الإيمان ودعوا العباد إلى عبادة الملك الديان فملؤوا بعلومهم الآفاق والبلدان وسارت بها الركبان إلى كل مكان . فمنهم الإمام الشافعي المتصل نسبة بالشرف إلى عدنان . ومنهم الإمام الأصبحي مالك بن أنس الرفيع القدر والشأن . ومنهم الإمام أحمد بن حنبل الذي سلك بعلمه الطريق الأحمد في السر والإعلان . ومنهم الإمام الكوفي أبو حنيفة النعمان . فهؤلاء الأربعة السادات الأعيان الذين نفع الله بهم وبعلمومهم الناس فزال عنهم البأس والجهل والغى والطغيان :

فالشافعي له علوم تشرق      بين الورى وله ثناء يعبق      ولمالك نشرت علوم مالها  
حدّ كبحر زاخر يتدفق      ولأحمد تعزى العلوم لأنه      يروي الحديث وصدقه متحقق

وأبو حنيفة سابق فلاجل ذا      آثاره وعلومه لا تسبق  
فهم الأئمة خصهم رب العلا      بالفضل منه فشأوهم لا يلحق

هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى رضوان الله عليهم أجمعين ، ولد بالأبواب سنة ثمانين . ومات سنة مائة وخمسين وعاش سبعين سنة وكانت ولادته في عصر الصحابة وتفقه في زمن التابعين . قال أبو بكر بن ثابت المؤرخ رحمه الله : ويقال : إن أبا ثابت هو الذي أهدى الفالوذج لعلّي بن أبي طالب رحمه الله يوم النيروز . وقيل : كان ذلك يوم المهرجان وكان ثابت أبو أبي حنيفة يقول : أنا في بركة دعوة صدرت من عليّ رحمه الله في حقي . وقال السيد الشريف الحسيب النسيب أبو عبد الله محمد بن علي الحسيني أخبرني أبو العباس بن مسلمة قراءة عليه عن أبي البطي حدثنا ابن خيرون أخبرنا الضمري . قال : كان أبو حنيفة حسن السميت والوجه والثوب والنعل والمواساة لكل من طاف به ، ربعة من الرجال ليس بالطويل ولا بالقصير وكان من أحسن الناس منطلقاً سقطت في حجره حية فقام الناس عنه فنفض الحية وهو في مكانه لم يتغير . وعن أبي نعيم أنه كان يقول : كان أبو حنيفة حسن الوجه والثياب طيب الريح حسن المجلس شديد الكرم حسن المواساة لإخوانه . وكان عابداً زاهداً عارفاً بالله تعالى خائفاً منه مريداً وجه الله بعلمه . [ فأما كونه عابداً ] فيعرف بما روي عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحبي الليل كله . وقال عليّ ابن يزيد الصدائي رحمه الله : رأيت أبا حنيفة ختم القرآن في شهر رمضان ستين ختمة بالليل وختمة بالنهار . وقال أبو الجورية رحمه الله : لقد صحبت حماد بن أبي سليمان وعلقمة بن مرثد

ومحارب بن دثار وعون بن عبد الله وصحبت أبا حنيفة فما في القوم أحسن ليلاً من أبي حنيفة لقد صحبته ستة أشهر فما منها ليلة وضع جنبه فيها . وروي أنه كان يحسب نصف الليل ، وأشار إليه إنسان وهو يمشي وقال لغيره : هذا هو الذي يحسب الليل كله فلم يزل بعد ذلك يحسب الليل كله . وقال : أنا أستحي من الله تعالى أن أوصف بما ليس في من العبادة :

|                              |                            |                           |
|------------------------------|----------------------------|---------------------------|
| للإمام النعمان فضل عظيم      | حيث للدين قد أقام منارا    | سنه ضاحك ويعلن حزنا       |
| ألهب الخوف في الحشا منه نارا | لم يزل يكتم التهجد حتى     | مات من خشية الإله اضطبارا |
| ليله قائم يصلي ويكي          | وإذا جاء الصبح صام النهارا | لو تراه إذا هدأت كل عين   |
| باكياً يسفح الدموع الغزارا   | إن هذا هو الكريم على       | الله له صير الجنان قرارا  |

[وأما زهده] فقد روي عن بشر بن الوليد قال : كان أبو جعفر أمير المؤمنين أرسل إلى أبي حنيفة وأراد أن يوليه القضاء فأبى فحلف عليه أبو جعفر لتفعلن فحلف أبو حنيفة لا يفعل . فقال الربيع لأبي حنيفة : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟ فقال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر مني على كفارة يمينه فأمر به إلى السجن فمات في السجن ودفن في مقابر الخيزران . وفي موضع آخر : أن أبا جعفر المنصور دعا أبا حنيفة وسفيان الثوري وشريكاً فدخلوا عليه . فقال لسفيان : هذا عهدك على قضاء البصرة فالحق لها . وقال لشريك : هذا عهدك على قضاء الكوفة فامض إليها . وقال لأبي حنيفة : هذا عهدك على قضاء مدينتي وما يليها فامض . وقال لحاجبه : وجه معهم متوكلاً بهم فمن أبى منهم فاضربه مائة سوط . فأما شريك فإنه تقلد القضاء . وأما سفيان فإنه هرب إلى اليمن . وأما أبو حنيفة فإنه لم يقبل فضرب مائة سوط وحبس إلى أن مات ﷺ ورحمه رحمة واسعة .

وروي أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك . فقال : أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بحذافيرها فنفر منها ؟ وروي عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة : قد أمر لك أبو جعفر أمير المؤمنين بعشرة آلاف درهم . قال : فما رضي أبو حنيفة فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه . فقال من حضر : لا يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة أي هذه عادته ، فقال : ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته فقال لابنه : إذا متّ ودفنوني فخذ هذه البكرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له : هذه وديعتك التي أودعناها أبا حنيفة قال ابنه : ففعلت ذلك . فقال الحسن : رحمة الله على أبيك لقد كان شحيحاً على دينه . وأما علمه بطريق الآخرة وأمور الدين ومعرفته بالله عز وجل فتدل على شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا ، وقد قال ابن جريج : بلغني عن

كوفيكم هذا النعمان بن ثابت أن شديد الخوف من الله عزّ وجلّ . وقال شريك النخعي رحمه الله تعالى : كان أبو حنيفة ؓ طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس ، وهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطن والاشتغال بمهمات الدين فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله :

قد غدا في الزمان أسمى وأعلى      زاده الله منه نبلاً وفضلاً      صار في مجمع العلوم إلى حد  
ذا التناهي فليس يلحق أصلاً      ذو بيان ما أشكل الخطب إلا      حله فضله على الفور حلاً

وغدا في السماح مثل سحاب      لمعت نار برقه فاستهلا  
حلّ أرض العراق فاعتاض منه      أهلها العلم فارتووا منه نهلاً

ويروى أن أبا حنيفة ؓ كان يوماً جالساً في المسجد فدخل عليه طائفة من مقدمي الخوارج شاهرين سيوفهم ، فقالوا : يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين فإن أجبت نجوت وإلا قتلناك ، قال : اغمدوا سيوفكم فإن برؤيتها يشتغل قلبي قالوا : كيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها في رقبتك فقال : سلوا إذن ، فقالوا : جنازتان على الباب : إحداهما رجل شرب الخمر فغص فمات سكران ، والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة أهما كافران أم مؤمنان ؟ والقوم الذين جاؤوا يسألون مذهبهم التكفير بذنوب واحد فإن قال : مؤمنين قتلوه . فقال : من أي فرقة كانا من اليهود ؟ قالوا : لا ، قال : من النصارى ، قالوا : لا ، قال : من المجوس ؟ قالوا : لا ، قال : من عبدة الأوثان ؟ قالوا : لا ، قال : ممن كانا ؟ قالوا : من المسلمين ، قال : قد أجبتكم ، قالوا : وكيف ؟ قال : قد اعترفتم أنهما كانا من المسلمين ومن كان من المسلمين كيف تجعلونه من الكافرين ؟ قالوا : هما في الجنة أو في النار . قال : أقول فيهما ما قال إبراهيم خليل الرحمن ؑ في حق من هو شر منهما ﴿ فَنَبِّئْهُمَا إِنَّهُمَا مِمَّنْ وَعَسَافِي فَإِنَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : [ إبراهيم : ٣٦ ] وأقول ما قال عيسى روح الله عليه الصلاة والسلام فيمن هو شرّ منهما : ﴿ إِنَّ تَعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : [ المائدة : ١١٨ ] فتأبوا واعتذروا إليه . وروي أن امرأة دخلت مسجده وهو جالس بين أصحابه فأخرجت تفاحة أحد جانبيها أحمر والآخر أصفر فوضعتها بين يديه ولم تتكلم فأخذها أبو حنيفة وشقها نصفين فقامت المرأة وخرجت ولم يعرف أصحابه مرادها فسألوه عن ذلك ، فقال لهم : إنها ترى الدم تارة أحمر مثل أحد جانبي التفاحة وتارة أصفر مثل الجانب الآخر أيهما يكون حيضاً أو طهراً فشقت التفاحة وأريتها باطنها وأردت بذلك أنها لا تطهر حتى ترى البياض مثل باطنها فقامت . وقال أبو حنيفة : دخلت البصرة فظننت أن لا أسأل عن شيء إلا

أجبت عنه فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب فجعلت على نفسي أن لا أفارق حماداً فصحبته عشرين سنة قال : وما صليت صلاة إلا واستغفرت لحماذ مع والديّ ولكل من قرأت عليه وحدثنا صلح بن محمد عن يوسف بن رزين عن أبي حنيفة رضي الله عنه قال : رأيت في المنام كأني نبشت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجت عظاماً فاحتضنتها قال : فهالتني هذه الرؤيا فدخلت إلى ابن سيرين فقصصتها عليه فقال : إن صدقت رؤياك لتحين سنة محمد صلى الله عليه وسلم . وحدثنا يوسف بن الصباغ قال : قال لي رجل رأيت كأن أبا حنيفة نبش قبر النبي صلى الله عليه وسلم . فسألت عن ذلك ابن سيرين ولم أخبره من الرجل قال : هذا رجل يحبي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أبو حنيفة رضي الله عنه يقول : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين وما جاءنا عن أصحابه اخترنا منه ولم نخرج عن قولهم وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال . وأما غير ذلك فلا نسמע :

|                              |                                |
|------------------------------|--------------------------------|
| لقد أيد الله الأنام بعلمه    | وقد ردّ حزب الجهل بالعلم معروف |
| وقد ملأ الآفاق فضلاً بعلمه   | وكم جاءه في الكشف للضرر ملهوف  |
| وكم من منامات رآها له الورى  | وكم نفعتهم من نهاة التصانيف    |
| وكم من كرامات حكى القطر عدها | فلا الفضل محجوب ولا الحق مصروف |
| فهذا هو النعمان حقاً وإنه    | له عند رب العرش في القدر تشريف |

وأما تأدّبه عند مجالسة العلماء فحدثنا أبو هاشم أيوب بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن رشيد صاحب عبد الرحمن بن أبي القاسم عن يوسف بن عمرو عن عبد العزيز الدراوردي قال : رأيت أبا حنيفة ومالك بن أنس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد العشاء الآخرة وهما يتذكران ويتدارسان حتى إذا وقف أحدهما عن القول الذي قال به أمسك الآخر من غير تعنيف ولا تعبير ولا تخطئة حتى صليا الغداة في مجلسهما ذلك رضي الله عنهما . وأما إنصافه واعترافه فإنه رضي الله عنه كان يقول : قولنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب . وأما قيامه لله تعالى حق القيام فإنه كان إذا رأى منكراً ذهب ذلك اللين فظاظة واحمرت عيناه وانقلبتا في أم رأسه ، وانتفخت أوداجه ، وما رأى منكراً قط إلا أزاله ؛ ولقد خرج يوماً فرأى بعض الملاحى مع رجل فهاوشه فأوجعه الرجل ضرباً ولم يعرفه وهو مع ذلك يحرص على كسر ذلك حتى كسره ورجع إلى بيته فمكث شهرين منقطعاً في بيته من شدة الضرب . وقال الخطيب : قيل لسفيان الثوري : ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة ، ما سمعته يغتاب عدواً له قط . قال : هو والله أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها . وقال علي بن عاصم رحمه الله : لو وزن عقل أبي حنيفة بعقل نصف أهل الأرض لرجح بهم . وأما تأدّبه مع السلف فيروى أن سئل رضي الله عنه عن علقمة والأسود أيهما كان أفضل ؟ فقال : والله ما بلغ قدرهما أن أذكرهما إلا بالدعاء

والاستغفار إجلالاً لهما ولا أفضل بينهما . وأما كرمه ﷺ ، فقال قيس بن الربيع : كان أبو حنيفة يجمع ما يكتسبه من بضائعه فيشتري به الكسوة للمشايخ المحدثين وما يحتاجون إليه ويقول : احمدا الله تعالى فهو الذي أعطاكم فوالله ما أعطيتكم من مالي شيئاً . وكان ﷺ إذا جلس إليه الرجل يسأل عنه فإن كان به فاقه أعطاه فجلس إليه رجل عليه ثياب رثة ، فلما تفرق الناس عنه أمره بالقعود حتى خلا به فقال : ارفع هذا المصلى وخذ من تحته ألف درهم أصلح بها حالك ، فقال الرجل : أنا موسر وأنا في نعمة ، فقال له : أما بلغك الحديث : « إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » فينبغي لك أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك :

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| ملئت بها الآفاق والأقطار  | لأبي حنيفة في العلوم منار   |
| تروى المناقب عنه والأخبار | شيخ البرية في العلوم ومن له |
| وعليه منه سكينة ووقار     | متعبد لله طول حياته         |
| وله بكل وظيفة أذكار       | قد كان يحيي ليله متهجداً    |
| وله بذاك على الأنام فخار  | وعطاؤه قد كان سحاً في الورى |

وكان ﷺ لا يكلمه أحد في حاجة إلا قضاها . وأما ورعه عما دخله الشبه ؛ فعن حفص بن عبد الرحمن وكان شريك أبي حنيفة : أن أبا حنيفة كان يتجر عليه ويبعث إليه بمتاع ويقول له في ثوب كذا عيب فبين إن بعته فباع حفص المتاع ولم يبين ونسي ، فلما علم أبو حنيفة ذلك تصدق بثمن الثياب كلها ، ومن ورعه ﷺ أن شاة سرق في عهده فلم يأكل لحم شاة مدة تعيش الشاة فيها . وروي أن الخليفة بعث إلى أبي حنيفة وابن أبي ذئب بمال ، فقال ابن أبي ذئب : إن لا أرضى له بهذا المال فكيف أرضاه لنفسي ، وقال أبو حنيفة : لو ضربت على أن أمسّ منه درهماً ما مسسته ، وروي أن الخليفة دعاه فقال : يا أبا حنيفة : كم يحلّ للرجل الحرّ من النساء الحرائر ؟ فقال : أربع ، فقال الخليفة : اسمعي يا حرة ، فقال أبو حنيفة : على البديهة يا أمير المؤمنين لا يحلّ لك إلا واحدة فغضب الخليفة وقال : الآن قلت أربع ، فقال : يا أمير المؤمنين قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ : [ النساء : ٣ ] فلما سمعتك تقول اسمعي يا حرة عرفت أنك لا تعدل ، لهذا قلت لا يحلّ لك إلا واحدة ، فلما خرج أبو حنيفة بعثت زوجة الخليفة إليه ألف دينار وأنفذت تشكره وتثني عليه ، فلم يقبلها أبو حنيفة وردها وقال للرسول : قل لها أنا ما تكلمت لأجلك وما تكلمت إلا لأجل الله فأجري على الله . وكان ﷺ كثيراً الخوف والصدقة ، قال الخطيب : كان أبو حنيفة إذا أنفق على عياله نفقة

تصدق بمثلها ، وإذا اكتسى ثوباً جديداً كسا بقدر ثمنه العلماء ، وكان إذا وضع بين يديه الطعام ترك منه على الخبز بقدر ما يأكل ثم يطعمه لإنسان فقير أو لمن في بيته يحتاج إليه ، وكان يؤثر رضا ربه على كل شيء ولو أخذته السيوف في الله لاحتمل ، وكان دائماً يتمثل بهذين البيتين :

عطاء ذي العرش خير من عطائكمو      وفضله واسع يرجى ويتنظر  
تكدرون العطا منكم بمنتم      والله يعطي فلا من ولا كدر

وقال محمد بن الحسين الليثي : قدمت الكوفة فسألت عن أعبد أهلها فدفعت إلى أبي حنيفة ثم قدمتها وأنا شيخ فسألت عن أفقه أهلها فدفعت إلى أبي حنيفة . وقال مسعر بن كدام وكان مشتهراً بالزهد والاجتهاد : أتيت أبا حنيفة في مجلسه فرأيتَه يصلي الغداة ثم يجلس للناس للعلم إلى أن يصلي الظهر ثم يجلس إلى العصر فإذا صلى العصر جلس إلى المغرب فإذا صلى المغرب جلس إلى أن يصلي العشاء الآخرة فقلت في نفسي : هذا الرجل في هذا الشغل متى يتفرغ للعبادة لأتعاذه الليلة . قال : فتعاذته فلما هدا الناس خرج إلى المسجد فانتصب للصلاة إلى أن طلع الفجر ودخل منزله ولبس ثيابه ، وخرج إلى المسجد ففعل كفعله اليوم الأول ، فلما جاء الليل تعاذهته ففعل كفعله الليلة الماضية . قال : فقلت لألزمه إلى أن أموت أو يموت . قال ابن أبي معاذ : فبلغني أن مسعراً مات في مسجد أبي حنيفة في سجوده . وعن محمد بن الحسن قال : حدثني القاسم بن معن أن أبا حنيفة عليه السلام قرأ هذه الآية : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ﴾ : [القمر : ٤٦] فلم يزل يرددُها ويكي ويتضرع إلى أن طلع الفجر . وقال حفص بن عبد الرحمن : كان أبو حنيفة يحبي الليل بقراءة القرآن في ركعة ثلاثين سنة . وقال أسد بن عمرو : صلى أبو حنيفة عليه السلام الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة . وكان يسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه . وقيل : إنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه ستة آلاف مرة . وقال ابن أبي زائدة : صليت مع أبي حنيفة العشاء الآخرة ، وخرج الناس وأنا في المسجد أريد أن أسأله عن مسألة وهو لا يعلم أي في المسجد فقرأ حتى بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ وَوَقَدْ نَاعَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ : [الطور : ٢٧] فلم يزل يرددُها حتى طلع الفجر . ويروى أنه من شدة خوفه سمع قارئاً يقرأ ليلة في المسجد : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١] فلم يزل قابضاً على لحيته إلى الفجر وهو يقول : نحزى بمثقال ذرة ، فرحمة الله عليه ورضوانه :

|                             |                               |                           |
|-----------------------------|-------------------------------|---------------------------|
| إن نرد في أبي حنيفة وصفا    | فالرواة الثقات عنه تشير       | كان شمساً يضيء بالعلم حقا |
| وهو في الناس بالعلوم الأمير | كان شيخ الإسلام قدوة خلق الله | حقاً لما اقتضاه القدير    |
| لم يزل وجهه جميلاً بهيما    | خاشعاً لا يشوبه تكدير         | معرضاً عن حطام دنيا تلهي  |
| كل عقل مجبها مأسور          | قد تساوى لديه تزيه نفس        | عن حطام قليلها والكثير    |

وأما وفاته فحدثنا أحمد بن كامل وعبد الباقي بن قانع قالا : توفي أبو حنيفة رحمه الله ببغداد في رجب أو شعبان سنة خمسين ومائة وبلغ سبعين سنة . قيل : إنه سقي السم فمات رحمه الله ، وصلى عليه قاضي القضاء الحسن بن عمار في جمع عظيم . وأما رؤيته بعد الموت فحدثنا جعفر بن الحسن قال : رأيت أبا حنيفة في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي . وعن علي ابن الحسن قال : حدثنا علي بن مسلمة قال : سمعت عبد الحميد بن عبد الرحمن الجماني يقول : رأيت في المنام كأن نجماً سقط من السماء فقبل أبو حنيفة ، ثم سقط نجم آخر فقبل : مسعر ، ثم سقط آخر فقبل : سفيان . فمات أبو حنيفة قبل مسعر ثم مسعر قبل سفيان . وحدثنا خلف بن سالم قال : حدثنا صدقة - وكان صدقة مجاب الدعوة - : أنه لما دفن أبو حنيفة رحمة الله عليه في مقابر الخيزران سمعت صوتاً ليال يقول :

ذهب الفقه فلا فقه لكم      فاتقوا الله وكونوا خلفاً  
مات نعمان فمن هذا الذي      بعد يحيى ليله إن سجعاً  
وقال بعضهم في وفاته :

ألا كم لنعمان علوم سوابق      ويعزى له فضل وتنمى حقائق  
وزهد ولطف زانه وتفرد      معارف شاعت في العلا وطرائق  
فلله يوم حان فيه حمامه      فكادت له تهوي الجبال الشواهد  
وغص به كل الأنام فذا شج      كئيب وذا باك وآخر شاهق  
ويعلو وقار نعشه وسكينة      وكل فؤاد قد غدا وهو خافق  
وقاموا صفوفاً للصلاة كأنهم      سطور وهاتيك البقاع مهارق  
تحفهمو فيها الملائك خشعاً      ومن حوله حور حسان عرائق  
وقد حسد المسك التراب لطيهه      بقبر له فالطيب من ذاك عابق  
وفتحت الجنات يوم قدومه      يقبله رضوانه ويعانق  
وكم من منامات رآها أولو النهى      له فهي بالإسناد عنه توافق  
وكم من علوم واجتهاد بفقعه      يصون حماها حافز منه صادق  
وكم حل إشكالات وكم من أدلة      تشد إلى معناه فيها الأيانق  
وحدث عن خير الورى عند قبره      أحاديث صدق وهو بالنقل واثق  
وأحيا بعلم الفقه سنة أحمد      نبي له قلب المتيم شائق  
نبي الهدى جالي الصدى قانع العدا      مزيل الردى يوماً تحق الحقائق  
شفيع الورى خير الأنام محمد      ومن فضله في الخلق والذكر سابق

أحسنّ إليه كل وقت وأنثني      وقد عوقتني عن لقاء العوائق  
لئن أوصلتني أرض نجد مطيتي      وزرت حماء الرحب والدمع دافق  
كحلت عيوني من تراب ضريحه      ومن لي به كحلاً لعيني يوافق  
عليه صلاة الله ثم سلامه      مدى الدهر والأزمان ما ذرّ شارق

### المجلس الثالث والثلاثون

#### في ذكر كرامات الأولياء رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي ظهر بالبرهان وتجلّى ، وتصرف في الأكوان فعزل وولى ، ووفق من شاء من عباده فجاهد في الله حق جهاده وما ولى ، أقامه في الليل لخدمته فجاهد في طاعته ، وتلذذ بمناذمته والسعيد من بات بمشاهدة مولاه يتملى ، وسقاه من شراب قربه بكؤوس حبه فنادى بلسان ذوقه وقلبه على جمرات شوقه يتقلّى :

هذه الكاسات في الأسحار تجلّى      ما ترى الساقى علينا قد تجلّى      زالت الوحشة بالأنس وقد  
قيل يا من يطلب الوصل تملّى      دولة الهجر توالى وانقضت      والذي قد كان معزولاً تولى  
أيها الأحباب هذا وقتكم      إن عزمتم فابذلوا الأرواح بذلا      خلوة الليل خلت من عاذل  
والذي تهواه لا يسمع عدلا      واحد منفرد في ذاته      عنه آيات صفات الحسن تتلى

فسبحان من نظر بحسن اصطفائه إلى أوليائه ومنحهم من عطائه نعماً وفضلاً ، أعطاهم ومناهم اختبرهم وابتلاهم فشكروا على ما أعطى وصبروا على ما أبلى ، سبقت لهم العناية بالسعادة في سابق الإرادة فكانوا من الذين أحسنوا الحسنى وزيادة إذ صيرهم لها أهلاً ، خف منهم معروفاً بالمعروف فخرق في محبته الصفوف ، وجال في مجال الختوف ، وما زاع من محبته ولا ولى ، وفقه لمحبته ومنحه من طيب حضرته قرباً ووصلاً ، وسقاه بكأس الوصال حين رقه إلى رتبة الاتصال ففاز بقربه وتملى :

مذ شهدت الحبيب جهراً تحلى      همت شوقاً ونلت قرباً ووصلاً  
فلهذا عرفت فيه جهاراً      بشهود الهوى وكأسي تملّى

وجاد بالمزيد على أبي يزيد ، فلزم التجريد وشطح على كل مريد بالموارد الأحلى ونادى بلسان

حاله مترجماً عن وجده ويلبابه متعجباً بأحواله مدلاً :

ويح من لم يكن لوصلك أهلاً      ذاك عن قصده تباعد جهلاً  
لو يذوق الغرام في الحب أضحي      مستهماً بناره يتقلّى

وشعشع شמוש العناية للشبلي ، فبات لأنوار الهداية يستجلى ، ولأسرار المحبة يستملى ، إذ شرب بين الناس بالكأس الأملى ، وخاطبه في خلوة أنسه ، وقال له بنفسه مرحباً وأهلاً وسهلاً :

كأس شوقي من دنّ ذوقي تملّى      وعروس الرضا لعيني تجلّى  
لو تراني وقد براني نحول      هو عندي أهني لقلبي وأحلى

وتفضل على الفضيل ، فشمّر في خدمته الذيل ، وسار في نيل التحقيق بعد قطع الطريق مستقلاً وأصلّى بالمصالحة أسرار قلبه وناداه وقد جمع له بقره شملاً :

قد عفونا عما مضى منك فضلاً      مذكراً أينك للتواصل أهلاً  
ثم قلنا لما أتيت منيئاً      مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً

وأدار صرف المزاج على الحلاج فسكر وهاج ، وخرج عن المنهاج ، وبات بنار شوقه يتقلّى ، ونادى بلسان وجده ، وقد خرج عن حده لما رأى ساقى شهوده في وجوده قد تجلّى :

ساقى الراح لا تزدني مهلاً      ما ترى القوم من شرابك قتلى  
يا حبيب القلوب أنت لقلبي      كعبة الحسن للخلائق تجلّى  
جئت أسعى على جفوني إليها      قيل لي لن تنال بالسعي وصلاً  
قلت إن جئت زائراً تقبلوني      قيل إن كنت للتواصل أهلاً  
قلت قد متّ في هواكم غراماً      قيل هكذا يكون وإلا  
أيها الخاطب الذي جاء يبغي      من حمائنا قريباً ويطلب وصلاً  
غضّ عن غير حسننا كل طرف      وتهنى بحسننا وتملّى  
وإذا جئت فامدد الكف فقراً      في الدياجي وعفر الخدّ ذلاً  
واعترف بالذنوب وابك الخطايا      وزماناً مضى وعمراً تولى  
ثم لذّ بالنبي خير البرايا      والذي في الإسرا دنا فتلى  
ثم صلّ عليه في كل وقت      فعليه رب الخلائق صلي

[عن سهل بن عبد الله رضي الله عنه] قال : مرض رجل من أولياء الله تعالى مرضاً شديداً فكان الناس إذا رأوه قالوا به جنون فأكثرُوا عليه ، فلما عظم كلام الناس في أمره قالوا له : نعالجك ؟ . فقال

لهم : يا قوم اعلموا أن لي طبيباً إذا سألته داواني لكنني لا أسأله أن يداويني فقليل له : ولم ذلك وأنت محتاج إلى الدواء ؟ فقال : أخشى إن برئت من هذه العلة طغيت . فقليل له : إن عندنا مجنوناً فاسأل طبيبك هذا أن يداويه ، قال نعم اتتوني به فأتوه برجل في عتقه غلّ عظيم ويده مشدودتان إلى عنقه في قيد ثقيل قد استمكنت منه العلة ، فقال لهم : خلوا بيني وبينه فنهض جهال القوم إلى يديه فحلّوها وأدخلوه معه في البيت الذي كان فيه وأغلقوا عليهما الباب وهم يظنون أنه سيفضي إليه بمكروه ، فلما كان بعد ساعة صاحوا به فأجابهم وخرج إليهم وسلم ليهم وكلمهم بكلام عاقل وهو يبكي بكاءً شديداً . فقال له : أخبرنا بقصتك وما كان منك ومنه ، فقال : دخلت على هذا الرجل وأنا على ما قد علمتم لا أعقل شيئاً كما رأيتموني فقربني منه وأدناي وجعل يده على صدري والأخرى على رأسي فأحسست بالعافية وزال ما بي فقالوا له : ادخل معنا إليه لنسأله أن يدعو الله عزّ وجلّ لنا فدخل مع القوم إليه فلم يجدوه في البيت وستره الله عزّ وجلّ عن أعينهم . قال سهم : وهذا رجل من بيت المقدس يقال له إدريس بن أبي خولة ؑ :

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| أهل المحبة ما نالوا الذي وجدوا | حتى لربهم في الخلوة انفردوا   |
| تراهم الدهر لا يمضون من بلد    | إلا ويكي عليهم ذلك البلد      |
| لا يعطفون على أهل ولا ولد      | ولا ينامون إن كان الوري رقدوا |
| فالذكر مطعمهم والشكر مشربهم    | والوجد مركبهم من أجل ذا سعدوا |
| لا يرحون على أبواب سيدهم       | ولا يريدون إلا من له عبدوا    |
| فالشوق يضرم ناراً في قلوبهم    | ونارهم في دجى الظلماء تتقد    |
| مساجد الله مأواهم ومسكنهم      | وعيشهم طيب في قربه رغد        |

[قال الجنيد رحمه الله عليه] : حججت سنة من السنين وجاورت بمكة شرفها الله تعالى فجئت يوماً إلى بئر زمزم لأرتوي منها فلم أجد بها حبلاً ولا ركوة ولا سقاء ، فبينما أنا كذلك إذ دخل عبد أسود ومعه ركوة وحبل فدلاهما في البئر فلم يصلا فرفعهما وقال : وعزتك لئن لم تسقني لأغضبني فإذا بالماء قد طفح على جانب البئر فتوضأ وشرب وملاً ركوته ثم عاد الماء إلى قعر البئر ، قال الجنيد : فلما خرج تبعته وقلت حبيبي على من كنت تغضب ؟ فقال : يا جنيد ما هو كم خطر لك كنت أغضب على نفسي لا أسقيها الماء إلى يوم القيامة ، فلما علم سيدي صدق الدعوى أنبع لي الماء ثم غاب عني فلم أراه :

|                   |                    |                 |                  |
|-------------------|--------------------|-----------------|------------------|
| قوم أقاموا وداموا | على العهود وراقبوا | حبيهم واستقاموا | في السر والإجهار |
| طوى لهم إذ وفوا   | إليه من دون الوري  | وبادروا بالطاعة | في خدمة الجبار   |

|                     |                     |                  |                  |
|---------------------|---------------------|------------------|------------------|
| لبوه لما دعاهم      | وقدموا أرواحهم      | وأقبلوا لحماءه   | من سائر الأقطار  |
| لهم حقائق دقائق     | على الخلائق تنعجم   | محلها من بوارق   | خوارق الأفكار    |
| هبت عليهم نسيمة     | فاستنشقوا من نشرها  | شذا الحبيب ومنها | تنسموا الأخبار   |
| وحين وافت وطافت     | تفردوا وتجردوا      | عن الوجود وولوا  | عن سائر الأغيار  |
| قلوبهم معمورة       | بحبّ مولاهم فلا     | يضرّهم في الظاهر | ملايس الإنكار    |
| باعوا النعيم الفاني | وحققوا واستيقنوا    | بأن هذي الدنيا   | ليست بدار قرار   |
| أباحهم مولاهم       | يوم القيامة والجزا  | جنات عدن تجري    | من تحتها الأنهار |
| فعند ما يدخلوها     | تقبل تنادي الملائكة | بشراكم إذ صيرتم  | فنعم عقبي الدار  |

[قيل] المعروف الكرخي رحمة الله عليه : يا معروف بماذا أنت معروف ، وبأيّ وصف في المحبة موصوف ؟ فقال : يا قوم ويحكم هل يجهل المعروف أو ينكر المألوف ، وهل يخفى القمر إلا على البصر المكفوف ؟ أما تنظرون إلى قلبي المشغوف ولبي الملهوف وعقلي المخطوف فكم خرقت في المحبة من صفوف ، وكم جرعت من كؤوس صروفها من حتوف ، وكم قرأت في رموز مشكلها من حروف ، حتى صرت بين أهل المحبة معروف ، ولولا أن يكون معروف لكان عن طريق السعادة مصروف فإن المستور بأثواب غروره مكشوف ، والمتبرج بدعواه ترد عليه الزيزف :

|                               |                           |
|-------------------------------|---------------------------|
| جسدي على حكم الضنى موقوف      | أبدأ وطرفي بالبكاء مطروف  |
| والقلب حول حماكم ورضاكمو      | يسعى على قدم الصفا ويطوف  |
| فبحسنكم قلبي يهيم صباة        | وبحبكم أبدأ أنا موصوف     |
| وبوصلكم قد غدت من هجرانكم     | فأنا الحزين وقلبي الملهوف |
| وبكم عرفت فكيف تنكر حالتي     | والفضل أن لا ينكر المعروف |
| مالي سوى أبوابكم يا سادتي     | والقلب من هجرانكم مرجوف   |
| حاشاكمو أن تطردوا عبداً لكم   | عن بابكم قد جاء وهو مخوف  |
| يبغي الأمان ومنكمو يرجو الرضا | والستر فهو لديكمو مكشوف   |

[قيل] للفضيل بن عياض رحمة الله عليه : يا فضل أخبرنا كيف جذبتك يد التوفيق من قطع الطريق ، وكيف نقلت من فريق الشقاوة إلى أسعد فريق ؟ فقال : يا قوم كنت ضالاً عن الطريق بعيداً عن التوفيق ، فأنقذني مولاي من بحر الآثام ، وغمرني بالإحسان والإنعام ، فقالوا : كيف كان ذلك ، وكيف قربت عليك المسالك ؟ فقال : بينا أنا يوماً قد خرجت لأقطع الطريق على المارة وتقودني إلى الشرّ نفسي الأمارّة غرّني الزمان واستحوذ عليّ الشيطان ، فذهب لأستلب الرقاب وأنتهب الركاب ، وأنا في ظلمة الحجاب آتية ولا أعرف لطريق

الصواب باب ، إذا طلع عليّ من مكان التوفيق كمين : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : [الحديد : ١٦] فألقيت له سمعي وأجريت بالبكاء دمعي وطار قلبي وأثر ذلك في رجوعي إلى بي . فقلت : بلى والله قد آن وحان رجوعي إلى الرحمن وخوفي من العصيان ، ولكن لا بد للخائف من أمان ، فجاءت بشائر القرآن بترجمان : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴾ : [الرحمن : ٤٦] فرجعت من قطع الطريق الجادة إلى قطع السجادة وخرجت عن طريق الوسادة ودخلت في طريق أهل السعادة ، فصرت تحت قهر قدرته أسيراً ووقفت على باب رحمته فقيراً ونكست رأس ذلتي على باب عزته كسيراً . وقلت : سيدي رجعت إليك رجوع العبد الأبق مستشفعاً بفضلِكَ السابق فغدوت صائداً ورجعت مصاداً ، وذهبت قائداً ورجعت إلى بابك منقاداً ، ثم أنشد يقول :

|                            |                           |                           |
|----------------------------|---------------------------|---------------------------|
| عييدك في معاصيه تنادي      | وبارز إذ طغى وبغى عنادا   | وها أنا واقف بالباب فردا  |
| كما تأتي العبيد غداً فرادي | فكم سودت من صحف ولكن      | ستور الحلم غطين السوادا   |
| فوا خجلي ومالي ثم وجه      | أواجههم ولا أعددت زادا    | ولا مال يقربني إليهم      |
| ولا جاء يبلغني المراد      | تراك معذبي يا نور عيني    | وقلبي فيك قد أصفى الودادا |
| فإن يرضيك إبعادي وطردي     | على رأسي ولو أضنى الفؤادا | فيا الله ما أنا محبا      |
| إلى أحبابه ألقى القيادا    | وما أشقى معنى قد تعنى     | وسد الباب فانقلب ارتدادا  |

فيا مولاي جد بالعفو وارحم  
أقلني عثرتي يا رب واغفر  
كثيراً قد أسأجهرأ ونادي  
لعبد في المعاصي قد تنادي

[كان] في بني إسرائيل رجل عابد في كهف جبل لا يراه الناس ولا يراهم وعنده عين ماء يتوضأ منها ويشرب ويقتات من نبات الأرض وهو صائم النهار قائم الليل لا يفتر عن العبادة وعليه آثار السعادة فسمع به موسى عليه السلام فقصده في النهار فوجده مشغولاً بالصلاة والأذكار وقصده في الليل فوجد مستغرقاً في مناجاة العزيز الغفار ، فسلم عليه موسى عليه السلام : وقال له : يا هذا ارفق بنفسك ، فقال يا نبي الله أخاف أن أؤخذ على غفلة فأقضي نحبي وأكون مقصراً في خدمة ربي ، فقال له موسى عليه السلام : هل لك من حاجة ؟ قال : سل مولاك أن يعطيني رضاه ولا يشغلني بسواه حتى ألقاه ، فصعد موسى عليه السلام إلى المناجاة واستغرق في لذة كلام مولاه ، فنسي قول العابد ، فقال له الحق سبحانه وتعالى : ماذا قال لك عبدي العابد ؟ فقال : إلهي أنت أعلم سألني أن تعطيه رضاك ولا تشغله بسواك حتى يلقاك . فقال : يا موسى اذهب إليه وقل له بتعب ما شاء في الليل والنهار فهو من أهل النار لما سبق له عندي من الذنوب والأوزار وأعلم منه ما لا يعلمه غيري من الفضيحة والعار ، فأتاه موسى عليه السلام فأخبره بقول ربه وما سبق من

عظيم ذنبه ، فقال : مرحباً بقضاء ربي وحكمه وكل شيء بعينه وعلمه لا مردّ لأمره ولا معقب لحكمه ثم بكى بكاء شديداً ، وقال : يا موسى وعزته وجلاله ما برحت عن بابه ولو طردني ، ولا حلت عن جنبه ولو أحرقتني ومزقني ثم أنشد :

لو قطعني الغرام إرباً إرباً ما ازدت على الغرام إلا حبا  
لا زلت به أسير وجد وضني حتى أفضي على هواه نجبا

فلما صعد موسى عليه السلام إلى المناجاة وقال : إلهي أنت أعلم بما قال عبدك العابد ، قال : يا موسى بشره بأنه من أهل الجنة فقد أدركته الرحمة والمنة وقل له تلقيت قضائي بالصبر والرضا ورضيت مني بأصعب حكم وقضا ، فلو ملأت ذنوبك السموات والأرض والفضا ، وجميع الأقطار لغفرتها لك وأنت الكريم الغفار ، فلما بلغه موسى ذلك خرّ ساجداً وحمد ربه ، وما زال في سجوده حتى قضى نجه :

نوح الحمام على الغضون شجاني ورأى العذول صبابتي فبكاني  
إن الحمام ينوح من خوف النوى وأنا أنوح مخافة الرحمن  
فلئن بكيت فلا ألام على البكا ولطالما استغرقت في العصيان  
يا رب عبدك من عذابك مشفق بك مستجير من لظى النيران  
فارحم تضرعه إليك وحزنه وامنن عليه اليوم بالغفران

فيا أيها العبد المريب إلى متى يدعوك مولاك وأنت معرض لا تحيب وكم يتقرب إليك بإحسانه وأنت تبارزه بعصيانه وعليك منه رقيب ؟ بادر بالتوبة إلى بابه ولذ بجانبه فهو منك قريب ، واسأله الهداية والتوفيق واقصده في إفراج الهم والضيق فقاصده لا يخيب ، وعامله بما يرضيه واحذر من معاصيه فإنه حاضر لا يغيب ، وادعه حين تناجيه فإنه لداعيه مجيب ، وتب في هذه الساعة إليه ، وتضرع بين يديه بالبكاء والنحيب ، فعسى يجتبيك بعنايته ، ويهديك بهدايته ، فإن الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب .

[كان وكان]

تعصي الإله وتغلق بابك لكيلا تفتضح فكل ما قد علمته عليك فيه رقيب  
تزعّم بأنك عاقل وأنت من أهل الوفا وتبّع شهواتك ما ذاك فعل لبيب  
انهض ودأوي سقامك فذا أوان طبه قبل أن تجيك المنية ما ينفع التطيب  
وقم وهىء زادك فقد دنا وقت السفر وراع غصن شبابك ما دام غصن رطيب

فيا أخي إلى متى تضيع عمرك وما نلت منه نصيب ، إلى كم يستحضرك إلى حضرة جنبه وأنت في المغيب ، إلى متى أنت سقيم بعلّة زلتك ولا تبدي شرح قضيتك إلى الطبيب ؟ .

[كان وكان] :

ارفع إلى محبوبك قصة ذنوبك في الدجى فهو الطيب المداوي ومن دعاه يجيب  
حيث اتجهت رأيتك حاضر معك في خلوتك وحيث كنت وجدته معك فليس يغيب  
فقم وداوي سقامك واهجر منامك والكرى واخلص قيامك عسى أن تنال منه نصيب  
فيا أيها الغريق في بحار الخطايا والذنوب ، المشتهر بالقبائح والعيوب ، المعرض عن خدمة  
علام الغيوب ، إن كنت مستوحشاً بالذنوب ، فباب الكريم مفتوح لمن يتوب .  
[كان وكان] :

فانهض وبادر بتوبة ثم اعتذر عما مضى إلى متى أنت معرض عن الرضى محبوب  
وقم وقول ارحموني وسامحوني سادتي فكم علمت قبائح وكم ركبت ذنوب  
وها أنا جئت نائب من زلتي يا سيدي فارحم خضوعي وذلي ودمعي المسكوب  
فيا أيها المريد المنقطع عن حبل حبه المديد لا تستصعب الطريق ، ولا تستبعد التوفيق ، فكم  
من ضعيف محمول ، وكم من منقطع موصول ، اركب جواد همتك وضع قدم أقدامك في  
ركاب عزيمتك ، فإن لم تملك زاداً من التقوى فاجعل لك زاداً من الشكوى ، واقدح به في  
حراق قلبك المحترق وأرسل عليه سحب دمعك المندفق ، فإذا صعد دخان زفرائك وعلت  
أنفاس حسراتك ، قف على الباب منتظراً ماذا يكون من الجواب ؟ فإن سمعت في العتاب من  
ذا الغريب الواقف بالباب وقوف المريب ؟ فقل :

العبد واقف بالباب وقوف سائل مفتقر منكسر الرأس يبكي بدمعه المسكوب  
قلب الفقير رأس ماله ورأس مالي قد خرب واحسرتي واعنائتي بقلبي المسلوب  
فإن قيل لك فما الذي أبطأ بك عن مطلوبك وما الذي قطعك عن محبوبك ؟ فقل :  
ما كنت أعرف بجهلي مقدار وصل أحبتي حتى هجرت فقلبي  
عن وصلهم محجوب حتى متى بالقطيعة والصد عمري ينقضي  
عودوا إلى الوصل عودوا وحياتكم وأتوب

فإن قيل : فكم تتوب وتنقض ، وتعرض لك وأنت عنا معرض ؟ فقل :

من الساعة إن سمحت بالصلح قلبي ينصلح وينصلح كل حال من كلي الميعوب  
ترى تزدل الوحشة ونصطلح بعد الغضب ونجتمع بعد فرقة ونبليح المطلبوب  
وافر حتى يوم أنظر جمال وجه أحبتي ويشفى بالالتاقي فؤادي المكروب  
وأزور قبر الهادي خير الأنام المصطفى الهاشمي التهامي المجتبي المحبوب  
صلى الله علي وسلم رب السموات العلى مادام قلبي إليه على الدوام طروب  
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## الجلس الرابع والثلاثون

### في مناقب معروف الكرخي رحمة الله عليه

الحمد لله الرحيم الرؤوف الكريم العطوف ، المعروف بالمعروف ، الواحد الأحد الذي لا يتأثر بالوحدة ولا يتكثر بالألوف ، الغني في ملكوته عن الوزير المشير والأليف والمألوف ، العالم فوق النجوم وما تحت التخوم ، فستر الغيب عنده مكشوف ؛ استوى على العرش استواء منزهاً عن الحركة والجلوس والوقوف ، أحمد الله سبحانه وتعالى لما دفع من المخوف ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من لسانه بالصدق مخفوف ، وكفه على الامتداد إلى غير الحق مكفوف ، وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله أرسله إلى الشريف والمشروف ؛ وبشر بالجنة الدانية القطوف ، وحذر من النار الحامية العسوف ، ولبس الصوف وانتعل المخصوف ، وكان من الله بمكان مكين ومقام موصوف . اللهم صلّ على هذا النبي الكريم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الشم الأنوف ، وسلم عليه وعليهم ما صفّ في الصلوات من الجماعة صفوف :

|                              |                             |
|------------------------------|-----------------------------|
| هذا الولي الذي بالخير موصوف  | واسمه في الوري لا شك معروف  |
| هو الولي الذي أعطى كرامته    | حديث سنّ له بالبرّ مألوف    |
| له الكرامات عند الله قد جمعت | وشوقه زائد والطرف مطروف     |
| ما نسام عن خدمة الله ليلته   | وقد غدا السرّ منه وهو مكشوف |

هو معروف وهو والله بالخير موصوف ، وكنيته أبو محفوظ واسم أبيه فيروز وهو منسوب إلى كرخ بغداد ، وكان أبواه نصرانيين ، وكان معروف في صغره يصلي بالصبيان فكان يعرض الإسلام على أبويه فيضجان منه فأسلماه يوماً إلى معلم دينهما ليعلمه فأجلسه قدامه وقال له : يا بني أنت وأبوك وأملك كم أنتم في العدد ؟ فقال : ثلاثة ، فقال : قل ثالث ثلاثة ، فصاحت به الغيرة : إياك أن تذكر غيره فتهوي في مهاوي الحيرة ، واحذر أن تتجاوز من الأحد إلى أحد فتضرب بسياط البعد والكمد ، قال معروف : فطاب لي سماع هذا الخطاب ، ثم رفع الحجاب ، وزال الاحتجاب فرأيت كأساً من المحبة والإخلاص ، مكتوباً عليه بقلم القبول والاختصاص ، على الجانب الواحد : ﴿ وَاللَّهُ كَرِيمٌ وَاللَّهُ وَجِدٌ ﴾ : [البقرة : ١٦٣] وعلى الجانب الثاني : ﴿ لَاتَّخَذُوا إِلَهَيْنِ إِتْمَاهُ إِلَهُ وَجِدٌ ﴾ : [النحل : ٥١] وعلى الجانب الثالث :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّا يُضِلُّ بِهِ إِبْرَاهِيمُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ : [المائدة : ٧٣] وعلى الجانب الرابع : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ : [طه : ١٤] فلما شربت ذلك الكأس ، ذهب عني البأس ، وزال الغي والالتباس ، فغبت في سكرتي وطبت في حضرتي ، وناديت بلسان فكري :

جسدي على حكم الضنى موقوف      أبداً وطرفي بالبكا مطروف  
والقلب حول حماكمو ورضاكمو      يسعى على قدم الصفا ويطوف  
وبكم عرفت فكيف تنكر حالتي      والفضل أن لا ينكر المعروف

ثم قال له المؤدب قل ثالث ثلاثة ، فقال : بل واحد أحد فضربه ضرباً مبرحاً ثم أحضره ، وقال له : قل ثالث ثلاثة ، فقال : بل واحد أحد فضربه أشد من الأول وأمر أبويه فحبساه في خزانة فمكث فيها ثلاثة أيام كل يوم يرمون له رغيفاً وشربة ماء فبكت أمه وقالت لأبيه : إن ولدك صغير وأخاف أن يعتريه في هذه الخزانة جنون فأخرجه منها ففتحا عليه الباب فوجدا الثلاثة أرغفة لم تكسر فراوداه على الخروج فأبى فقال له : ما تريد بحبسك في هذه الخزانة ؟ فقال : إن الحبيب الذي حبستما من أجله وجدته عندي فأنسني :

واحد لاشيء يشبهه      أبداً قلبي يوحده      لو رآه الجاحدون له      لرأوا لا شيء يشبهه  
هو فرد والفؤاد له      عن جميع الخلق أفرده      أنا معروف بألفته      يا عذولي كيف أنكره

حيثما وجهت فهو معي      هات قل لي كيف أجحده

فلما ألحوا عليه في الخروج خرج وساح على وجهه وبقي أياماً لا يأكل طعاماً ولا يذوق شرباً ولا يستظل بمجدار وجعل أبواه يبكيان ويقولان : ليت يرجع إلينا على أي دين شاء فتبعه ونوافقه ، فلما كان بعد مدة طرق الباب فقيل : من ؟ قال : معروف ، قال : على أي دين أنت ؟ قال : على دين الإسلام فخرج إليه أبواه واعتنقاه وأقبلا عليه وأسلما على يديه :

تعالوا بنا نصطح      فباب الرضا قد فتح      وداووا الفؤاد الذي      بسيف الجفا قد جرح  
فيا مدعي حبا      دع الروح ثم انطرح      ووجد جمال الحبيب      وقل للعذوب استرح

وروى معروف الكرخي بإسناده عن أنس بن مالك وابن عمر رضي الله عنهم : « أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال له : يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : لا تغضب ، قال : فإن لم أطق ذلك يا رسول الله ؟ قال : فاستغفر الله عز وجل كل يوم بعد صلاة العصر سبعين مرة يغفر لك ذنوبك سبعين عاماً ، قال : فإن لم يأت عليّ ذنوب سبعين عاماً ؟ قال : يغفر لأمك ، قال : فإن ماتت أُمِّي ولم يأت عليها ذنوب سبعين عاماً ؟ قال : يغفر لأقاربك ». وروى معروف الكرخي أيضاً رضي الله عنه بإسناده عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من قضى لأخيه المسلم حاجة كان له من الأجر كمن حج واعتمر » .

وروى معروف الكرخي رحمه الله بإسناده عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « من قال عند منامه : اللهم آمنا مكرك ولا تنسنا ذكرك ولا تكشف عنا سترك ولا تجعلنا من الغافلين . اللهم ابعثنا في أحب الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا ونسألك فتعطينا وندعوك فتستجيب لنا ونستغفرك فتغفر لنا إلا بعث الله تعالى ملكاً في أحب الساعات إليه فيوقظه فإن قام وإلا صعد الملك وبعث إليه ملكاً آخر فإن قام وإلا صعد ذلك فقام مع صاحبه الأول فإن قام بعد ذلك ودعا استجيب له ، وإن لم يقم كتب الله تعالى له ثواب أولئك الملائكة » .

[ومن كراماته رحمه الله] قال ابن مردويه : كنا جالسين مع معرف الكرخي فلما كان ذات يوم رأيت وجهه متهللاً ، فقلت له : يا أبا محفوظ بلغني أنك تمشي على الماء ؟ قال لي : ما مشيت على الماء قط ولكن إذا هممت بالعبور يجمع لي طرفاها فأخطاها . وقال محمد بن واسع رحمه الله عليه : كنت عند معروف أذان المغرب وجئت إليه من الغد ، فإذا في وجهه أثر فقلت لشيخ إلى جانبي كان أنس به : سله ، فقال له يا أبا محفوظ كنا عندك أمس وما بوجهك هذا الأثر وجئنا اليوم وهو في وجهك فما السبب في ذلك ؟ فقال معروف : لا تسأل عما لا يعينك عافاك الله ، فقال له الرجل : سألتك بالله أي شيء سببه ؟ فقال معروف : ويحك ما حملك على هذا ! قال : ثم تغير وجهه ثم قال : صليت البارحة ههنا العتمة واشتهيت أن أطوف بالبيت فمضيت إلى مكة شرفها الله تعالى ، فطففت ثم ملت إلى زمزم لأشرب من مائها ، فرأيت صورة حسنة فحدقت إليها بالنظر فزلقت رجلي في الباب فأصاب وجهي ما ترى وإذا أنا بقاتل يقول : يا هذا لو زدت زدناك . وقال : حدثنا محمد بن مخلد قال : قرأ عليّ الحسن بن عبد الوهاب وأنا أسمع ، قال : قالوا : إن معروفاً الكرخي يمشي على الماء ولو قيل لي إنه يمشي في الهواء لصدقت . وقال عبد الصمد بن حميد : سمعت عبد الوهاب يقول : ما رأيت أزهد من معروف .

[ومن كلامه رحمه الله] قال إبراهيم البكاء رحمه الله عليه : سمعت معروفاً الكرخي رحمه الله عليه يقول : إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل . وجاء يحيى بن معين وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما عند معروف ، فقال يحيى : أريد أن أسأله عن سجدي السهو ؟ فقال له أحمد : اسكت فلم يسكت ، فقال له : يا أبا محفوظ ما تقول في سجدي السهو ؟ فقال له معروف : عقوبة للقلب لما اشتغل وغفل عن الصلاة ، فقال له أحمد بن حنبل رحمه الله : هذا من كيسك . وقال : أقام معروف الصلاة يوماً ، ثم قال لمحمد بن أبي توبة تقدم فضل بنا وذلك أن معروفاً كان لا يؤم إنما يؤذن ويقيم ويقدم غيره ، فقال له محمد بن أبي توبة : إن صليت بكم هذه

الصلاة لم أصلّ بكم صلاة أخرى ، فقال له معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى ! نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل . ومن كلامه أيضاً ﷺ : الدنيا أربعة أشياء : المال والكلام والنمّ والطعام . فالمال يطغي ، والكلام يلهي ، والنمّ ينسي ، والطعام يقسي . وقال سري السقطي رحمه الله : سمعت معلوفاً الكرخي يقول : من كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن مكره خدعه ، ومن توكل عليه نفعه ، ومن تواضع له رفعه

تواضع لرب العرش علك ترفع      فما خاب عبد للمهمين يخضع  
لأشفي دواء للقلوب وأنفع      ولا تغتر بالكر منك وبالنبي      فمن خادع الله المعظم يخدع

[ قيل لمعلوف ﷺ ] : بأي شيء يخرج حب الدنيا من القلب ؟ قال : بصفاء الود ، وحسن المعاملة ، وللفتين علامات ثلاث : وفاء بلا خلاف وعطاء بلا سؤال ومدح بلا جود . وعلامات الأولياء ثلاث : همّهم الله وشغلهم فيه وفرارهم إليه . وجاء رجل إلى معلوف الكرخي ﷺ فقال له : يا سيدي عرفني كيف أصل إلى الله تبارك وتعالى ؟ فأخذ بيده وأتى به دار أمير فوجد على الباب عبداً قائماً مكسوراً الرجل ، فقال لسائله : كن مثل هذا تصل إلى الله تعالى وأشار الشيخ يعني كن عبداً مكسوراً وفقاً على الباب :

العبد واقف على أبوابكم مكسور      واحسرتي إن أمت في حبكم مهجور  
يا ليت شعري تراكم تعتقوا المأسور      عسى إذا ما التقينا ينمحي المسطور  
[ وأنشد آخر ] :

بالله عليكم دعوا ما بيننا مسطور      واحوا بإحسانكم ما قد حوى الدستور  
لا يسمعون العدا حين يتقري المسطور      ترجع فضيحة وقلبي يثني مكسور

ومما يدل على شدة خوفه رحمه الله قال أبو بكر بن أبي طالب : دخلت مسجد معلوف الكرخي وكان في منزله فدخل إلينا ونحن جماعة . فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرددنا عليك السلام فقال : حياكم الله بالسلام في دار السلام ونعمنا وإياكم في الدنيا بالإحسان وفي الآخرة بالغفران ثم أذن فلما أخذ في الأذان اضطرب وارتعد حين قال : أشهد أن لا إله إلا الله وقام شعر حاجبيه ولحيته واضطرب حتى خفت أن لا يتم أذانه وانحنى حتى كاد أن يسقط . وقال الثقفني : سمعت عبد الله بن محمد الوراق رحمه الله يقول : ربما كنا مع أبي محفوظ في المجلس وهو قاعد يتفكر ثم يفرغ ثم يقول : واغوثاه . وقال القاسم البغدادى رحمه الله عليه : كنت جار معلوف الكرخي فسمعت ليلة في المسجد ينوح ويبكي وينشد ويقول :

أي شيء تريد مني الذنوب      شغفت بي فليس عني تغيب  
ما يضر الذنوب لو أعتقتني      رحمة لي فقد علاني المشيب

وقال يحيى بن الحسن رحمه الله : سمعت معروفاً الكرخي رحمه الله عليه يقول : رأيت رجلاً بالبادية شاباً حسن الشباب وله ذؤابتان وعلى رأسه رداء قطن وعليه قميص كتان وفي رجله طاق نعل قال معروف : فتعجبت منه في مثل ذلك المكان فسلمت عليه فرد عليّ السلام فقلت له : من أين أنت ؟ قال : من مدينة دمشق ، قلت له : ومتى خرجت منها ؟ قال : ضحوة النهار فتعجبت منه وكان بينه وبين دمشق مسافة بعيدة ومراحل كثيرة ، قلت : وأين تقصد ؟ قال : مكة فعلمت أنه محمول بالعناية فودعته ومضى ولم أراه حتى مضت ثلاث سنين ، فلما كان ذات يوم وأنا جالس في منزلي أتفكر وإذا بالبواب يطرق فخرجت فإذا هو صاحبي فسلمت عليه ، وقلت : له أهلاً ومرحباً وأدخلته المنزل فرأيتَه منقطعاً والهاً حافياً حاسراً ، فقلت له : ما الخبر ؟ فقال : يا أستاذ لاطفني حتى أدخلني الشبكة فرماني ، فمرة يلاطفني ومرة يهددني ومرة يجيعني ومرة يكرمني فليتة أوقفني على بعض أسرار أوليائه ثم ليفعل بي ما شاء . قال معروف : فأبكاني كلامه ، فقلت : حدثني ببعض ما جرى عليك منذ فارقتي ، فقال : هيهات أن أبدية وهو يريد أن أخفيه ، ثم استفرغه البكاء ، فقلت : وما فعل لك ؟ فقال : جوعني ثلاثين يوماً ، ثم جئت إلى قرية فيها مقشاة كماً قد أخرجت الورق فقعدت آكل من الورق فنظرتني صاحب المقشاة فأقبل يضربني على ظهري وعلى بطني . ويقول : يا لص ما أخرب مقشاتي غيرك وأنا منذ كم أرصدك حتى وقعت عليك . والله لأعذبنك أنواع العذاب فبينما هو يضربني إذ أقبل فارس نحوه مسرعاً وقلب السوط على رأسه . وقال له : ويلك تعمد إلى وليّ من أولياء الله تعالى فتقول له : يا لص وتضربه وتهينه ولم يأكل من مقشأتك غير الورق ، قال : فأخذني صاحب المقشاة وقبل يدي ورأسي واعتذر إليّ وذهب بي إلى منزله وأكرمني وأحسن إليّ وسبل مقشاته للفقراء والمساكين من أجلي ، فقلت له : أنا من أصحاب معروف ، فقال : صف لي معروفاً فوصفتك له فعرفك فما استتم كلامه حتى دق الباب صاحب المقشاة ودخل إلينا ، وكان موسراً فخرج عن جميع عن جميع ماله وفرقه على الفقراء وصحب الشاب سنة ثم خرجا إلى الحج فحجا واعتمرا وماتا جميعاً ودفنا بالمعلاة من مكة رحمهما الله تعالى :

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| الله حسبي في الأكوان آيات | فيها لمعرفة الرحمن إثبات    |
| انظر إلى كل مخلوق تعالينه | إذا تعتريه من التغيير حالات |
| جمع وفرق وصفو بعده كدر    | قرب وبعد وإعراض وإخبات      |
| تصريف رب حكيم مالك صمد    | وكل فعل له في اللوح ميقات   |
| الله أيام أنس قد صحبت بها | قوماً هم في سلوك الحق سادات |

قوم مضوا كانت الدنيا بهم نزهاً      والدهر كالعيد والأوقات أوقات  
ماتوا وعشنا فهم عاشوا بموتهم      ونحن في صور الأحياء أموات  
هم الأحبة إن ماتوا وإن رحلوا      على مضاجعهم من التحيات  
أضحت أحاديثهم ما بيننا سمرأ      وذكر أوقاتهم للقلب أقوات  
أخي فبادر إلى زاد تحصله      ولا تسوّف فللتأخير آفات  
وكم سرور أتى من بعده حزن      وكم أتت بعد أحزان مسرات  
يارب صلّ على أعلى الورى شرفاً      محمد ما علت بالذكر أصوات  
وآله وعلى الأصحاب كلهم      مني السلام عليهم والتحيات

[ومن دعائه ﷺ] : اللهم يا من وفق أهل الخير للخير وأعانهم عليه وفقنا للخير وأعنا عليه . وجاء رجل إلى معروف رحمه الله ، فقال : ادع الله أن يلين قلبي ، فقال : قل يا ملين القلوب لين قلبي قبل أن تلينه عند الموت . قال سري السقطي رحمه الله عليه : هذا الذي أنا فيه ما نلت إلا ببركة معروف الكرخي ﷺ . وذلك أن انصرفت مرة من صلاة العيد فرأيت معروفاً ومعه صبي أشعث وهو باك مكسور القلب ، فقلت : ما لي أرى معك هذا الصغير باكياً . فقال لي : رأيت الصبيان يلعبون وهذا الصبي واقف مكسور القلب لا يلعب معهم فسألته فقال لي : أنا يتيم مات أبي ولم يخلف لي شيئاً وليس معي شيء اشتري به جوزاً ألعب به مع الصبيان ، فأخذته معي لعلني أجمع له نوى يشتري به جوزاً يلعب به . فقلت له : أعطني إياه أغير من حاله ما تشعث قال : أو تفعل ؟ قلت : نعم ، قال : خذه أغنى الله قلبك بالإيمان وعرفك الطريق إليه في السر والإعلان . قال السري : فأخذت الصبي ومضيت به إلى السوق فكسوته كسوة حسنة واشتريت له جوزاً فلعب به مع الصبيان نهاره فقالوا : من فعل بك هذا المعروف ؟ فقال : سيدي السري ومعروف فلما مضى الصبيان أتى إليّ وهو فرحان فقلت له : كيف كان يومك ؟ فقال : يا عم كسوتني من ملابس الإحسان وفرحتني بين الصبيان وجبرت قلبي بعد الكسر والأحزان فאלله تعالى يجبرك بين يديه ويفتح لك طريقاً إليه . قال : فسررت بذلك سروراً شديداً وجددت لي بالفرح عيداً جديداً :

كرر حديثهم فما أحلاه      وألذه عندي وما أهناه  
روح به روحي وحدّث عنهمو      فحديثهم للقلب ما أشهاه  
بالله واهتف مرة أخرى بهم      فعسى ينال الصب منه مناه  
ولنا رموز ليس يعرف شرحها      إلا الذي نشر الهوى وطواه  
ولقد تنادمنّا بكل لطيفة      سرّاً ولم تتلفظ الأفواه

[قال عامر بن عبد الله الكرخي رحمه الله] : كان بجواري رجل نصراني . فبينما أنا ذات يوم في منزلي وإذا به قد أتاني وقال لي : يا أبا عامر إن لي عليك حق الجوار ، وأنا أسألك بحق خالقي الليل والنهار إلا ما مضيت بي إلى وليّ من أولياء الله الأبرار ليدعوا لي أن يرزقني الله ولداً فقلبي إليه بالأشواق وفي كبدي منه لوعة واحتراق . قال : فأخذته ومضيت به إلى معروف الكرخي رحمه الله عليه فأخبرته بأمره فدعاه معروف إلى الإسلام . فقال له : يا معروف إنك لن تقدر على هدايتي إلا أن يهديني العلام . وأنا أسألك الدعاء فيما جئت فيه والسلام فرفع معروف يديه وقال : اللهم إني أسألك أن ترزقه ولداً يكون باراً بوالديه ويكون إسلامهما على يديه فاستجاب الله له ورزقه ولداً فاق بكمال عقله على أهل زمانه وعلا بنجابته على أبناء جنسه وأقرانه . فلما كبر أتى به أبوه إلى معلم دينهم ليعلمه كتابهم ويوضح له أسبابهم فأجلسه المعلم بين يديه ودفع اللوح إليه وقال له : قل ! قال : وما أقول " ولساني عن تثليثكم معقول وقلبي بحب ربي مشغول ، فقال له المعلم : يا بني ما عن هذا سألتك ، فقال عمّ سألتني ؟ قال : سألتك عما جئت إليّ تتعلمه وأتيت تتفهمه ، فقال له : علمني شيئاً يقبله عقلي ويدركه ذهني ونقلي :

|                                   |                           |                            |
|-----------------------------------|---------------------------|----------------------------|
| قل : قل يا بني ألف قل الصغير :    | ألف الوصل ألفت كل قلب     | لحيب صفاته أزيه            |
| قل له المعلم : يا بني قل بء قل :  | باء عين البقاء أحيا نفوسا | لم يدع حبه لها من بقيه     |
| قل له المعلم : يا بني قل ثاء قل : | طاء توق القلب يكشف عنها   | كل شك تكون منه بريه        |
| قل له المعلم : يا بني قل ثاء قل : | ثاء ثوب الثياب ثبت قوما   | قد ثووا في المقاعد العنديه |
| قل له المعلم : يا بني قل جيم قل : | جيم نور الجمال تجلى عليهم | في تجليه بكرة وعشيه        |
| قل له المعلم : يا بني قل حاء قل : | حاء حمد الإله أحى قلوبا   | فحمها من الخصال الدينه     |
| قل له المعلم : يا بني قل خاء قل : | حاء خوف الإله أذهب عنهم   | كل حزن لهم وكل رزيه        |

وما زال المعلم يلقيه حرفاً حرفاً وهو يحبيه عنها بكلام منظور مقفى إلى أن ذهل عقل المعلم ووجد في قلبه مما سمعه منه انتعاش ، وعلم أن كل دين غير دين الإسلام لاش ، فقال له المعلم : شاباش لك يا موحد المحبوب شاباش :

|                              |                                   |
|------------------------------|-----------------------------------|
| أما والذي أبكى وأضحك والذي   | أمات وأحيا والذي أخرج المرعى      |
| لقد خاب من يسعى إلى غير بابه | وضلّ الذي يوماً إلى غيره يدعى     |
| هو القصد لا شيء سواه فمن سعى | إلى غير ذاك القصد يا خيبة المسعى  |
| هو الماجد البرّ الرحيم وغيره | من الناس لا يستطيع ضراً ولا نفعاً |
| يرى العبد يعصيه ويستتر ذنبه  | ويرزقه من غير ما أنه يسعى         |
| يعامل بالغفران والصفح من عصي | ويوصل من يستوجب الهجر والقطعا     |

فسبحانه لا رب في الكون غيره يحب الذي يلقي إلى قوله السمعاء قال : فلما سمع المعلم كلامه الذي سلب عقله وشجاه علم أن ما أنطفه إلا الذي حلقة وأنشأه ، فقال عند ذلك في سر نجواه : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ثم أخذ الصبي وأتى به إلى أبيه ، فلما رآهما أبوه قد أقبلًا صار وجهه بالبشر مهلاً ، فقال للمعلم : كيف وجدت ولدي في ذكائه وفطنته ، فقال له المعلم : اصغ إلى مقالته ، ثم عرض عليه المقال فقال أبوه : والذي يغيث المضطر والملهوف ما نال ولدي هذه المنزلة إلا ببركة دعوة معروف . ثم قال : الحمد لله الذي أنقذنا بك يا بني من الضلال بعد أن كنا على أسوأ حال ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ثم أسلمت أم الصبي وكل من في الدار وكسروا الصليب وقطعوا الزنار وأنقذهم الله بدعوة معروف من النار :

|                           |                           |                           |
|---------------------------|---------------------------|---------------------------|
| ما مضى لا يعاد منكم فإننا | قد عفونا عما مضى واصطلحنا | أبشروا بالمتى فإن هاننا   |
| من أتاه ينال ما يمتنى     | فاز من جاءنا بذل وأضحى    | من جميع الأنام أعلى وأغنى |
| والذي جاءنا بزهو وعجب     | خاب في الناس سعيه وتعنى   | كم عزيز وافى هاننا مدلا   |
| حجبتة أيدي الشقاوة عنا    | والذي جاءنا بإخلاص قلب    | حاز فضلاً ونال عزاً وأمنا |

[قال أحمد بن العباس رحمه الله عليه] : خرجت من بغداد أريد الحج فاستقبلي رجل عليه أثر العبادة ، فقال لي : من أين خرجت ؟ قلت : من بغداد هارباً لما رأيت فيها من الفساد خفت أن يخسف بأهلها ، فقال : ارجع ولا تخف فإن فيها قبور أربعة رجال من الأولياء هم حصن لهم من جميع البلايا ، قلت : فمن هم ؟ قال : أحمد بن حنبل و معروف الكرخي وبشر الحافي ومنصور بن عمار فرجعت وزرت تلك القبور ، وحصل لي أمر عظيم من الفرح والسرور :

لأحمد أوصاف وبالعلم اشتهر و معروف لا تنساه فيمن قد انحصر وبشر ومنصور ولا سيما هما لهم أعين في الليل ما ملت السهر

[وقال أبو الفتح بن بشر رحمه الله عليه] : رأيت بشراً في منامي في بستان وبين يديه مائدة فقلت له : أبا نصر ما فعل الله لك ؟ قال : رحمني وغفر لي وأباحني الجنة بأسرها ، وقال لي : كل من جميع ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وتمتع بجميع ما فيها كما كنت تحرم نفسك الشهوات في دار الدنيا قلت له : فأين أخوك أحمد بن حنبل ؟ قال : هو قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة ممن يقول القرآن كلاماً لله تعالى غير مخلوف ، قلت له : فما فعل الله تعالى ب معروف الكرخي ؟ فحرك رأسه ، وقال : هيهات حالت بيننا وبينه الحجب : إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره وإنما عبده شوقاً إليه فرفعه الله تعالى إلى الرفيق الأعلى

ورفع الحجب بينه وبينه فمن كانت له إلى الله تعالى حاجة فليأت قبره وليدع فإنه يستجاب له إن شاء الله تعالى :

معروف كل الورى لا شك تعرفه      بالبرّ والخير والأنعام توصفه  
لقد أتى وله علم ومعرفة      وخدمة في جنان الخلد توقفه

[قال محمد بن عبد الرحمن الزهري رحمه الله عليه] : سمعت أبي يقول : قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج . وقال يحيى بن سليمان كانت لي حاجة ، وقد تعسرت عليّ فأتيت قبر معروف فقراءت : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : [الإخلاص : ١] ثلاث مرات ، وأهديتها له ولأموات المسلمين ثم ذكرت حاجتي فما رجعت إلا وقد قضيت حاجتي . وقال أبو بكر الخياط رحمه الله : رأيت كأني دخلت المقابر فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الرياحين ، وإذا بمعروف قائم فيما بينهم يذهب ويحيى فقلت له : يا أبا محفوظ ما فعل الله بك أليس قد مت ؟ قال : بلى ، ثم أنشأ يقول :

موت التقيّ حياة لا نفاد لها      قد مات قوم وهم في الناس أحياء  
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمو      على الهدى لمن استهدى أدلاء  
ماتوا وعشاقهم عاشوا بموتهمو      ونحن في صفة الأموات أحياء

[وأما تاريخ موته] فقال أبو بكر العجوري رحمه الله : سمعت ثعلباً يقول : مات معروف الكرخي رحمه الله سنة مائتين ، قال أبو القاسم النضري من بني نضر بن معين قال : حدثني أبي قال : بلغني أنه صلى على معروف ثلثمائة ألف إنسان ، قال عبد الرحمن بن محمد الوراق جاء رجل من أهل الشام إلى معروف الكرخي فسلم عليه ، وقال له : إني رأيت في المنام يقال لي : اذهب إلى معروف الكرخي فسلم عليه فإنه معروف في أهل الأرض معروف في أهل السماء . وبلغني عن بعض القدماء أنه قال : مات أخ لي فرأيت في المنام بعد عام ، فقلت له : يا أخي ما فعل الله بك ، قال : الآن أعتقت ، دفن عندنا معروف الكرخي فأعتق عن يمينه ثلاثون ألفاً ، وعن شماله ثلاثون ألفاً ، ومن بين يديه ثلاثون ألفاً ، ومن خلفه ثلاثون ألفاً :

سلكت طريق الفقر ظناً بأنني      أوافق بشراً أو أصاحب معروفاً  
ودمت على حسن العبادة عاكفاً      وأصبح حسن الظن حولي معكوفاً  
ولم أبد يوماً للخلائق قصتي      وما زلت في ثوب الصيانة ملفوفاً  
فما صح لي فقر ولا صح لي غنى      بل ازدددت في علم التقلب تعريفاً  
فلم أرى كالصالحين وسيلة      ألد الورى عرفاً وأطيب معروفاً

رجال إذا ما طبق الأرض حادث هم العروة الوثقى وهم أنجم الهدى  
 رموه بصدق العزم فانجباب مكشوفاً إذا وجدوا في الوقت كانوا طرازه  
 بهم يذهب الله المصائب تلطيفاً صفاتهم أسنى من الشمس في الضحى  
 وقد طرزوا من قبل ذاك التصانيفاً فيارب وفقنا كما قد منحتهم  
 وأحسن من در القلائد مصفوفاً وهبنا لهم يا ذا الجلال فإننا  
 ووفقهم كي لا نحاول تحريفاً وليس لنا من شافع غير سيد  
 أتيناك نخشى منك زجراً وتخويفاً رسول الهدى جلي الصدا كاشف الردى  
 به الضر عنا عاد في الحشر مكشوفاً عليه صلاة الله ما مرت الصبا  
 أنلنا به يارب في الحشر تخفيفاً وزاد حماه من عطياه تشريفا

### المجلس الخامس والثلاثون

#### في ذكر الأولياء والأبرار والصالحين والأخيار

الحمد لله الذي خص بحسن اصطفاؤه خواص أوليائه الأبرار ، وأسرى بأسرارهم في ليل  
 نيل أوطارهم إلى عالم الأسرار ، قاموا بواجب حقه فجعلهم أمناء على خلقه العبيد منهم  
 والأحرار ، ترفع على أيديهم قصص السائلين وتغفر بركاتهم للخاطئين الذنوب والأوزار ،  
 فهم بأمره متصرفون في البلاد لمصالح العباد البادين منهم والحضار ، فمنهم الثقباء والأبدال ، ومنهم  
 النجباء والرجال ، ومنهم الأقطاب الأخيار ، ومنهم الغوث الذي يسقى به الغيث وتدرّ  
 ببركته الضروع والزرورع والثمار ، فالنقباء سبعون وهم بمصر دون سائر الأمصار ، والأبدال  
 أربعون : وهم بالشام كالشامة الواضحة لذوي المعرفة والاستبصار ، والنجباء ثلثمائة :  
 استخفّلهم بالغرب للقيام بالحرب فهم لدينه حماة وأنصار ، والرجال عشرة وهم بالعراق  
 وشرابهم قد راق وصفاً من الأكدار ، والأقطاب سبعة أركزهم بالأقاليم السبعة لمنافع العباد في  
 سائر البلاد والأقطار ، والغوث واحد قد أقامه بمكة المشرفة المعظمة الذكر والمقدار ، فهؤلاء  
 أمناء سره المصون ، وخزان علمه المكنون ، إلى حين انقضاء الأعمار ، فلولا وجودهم  
 لغاضت العيون والأنهار ، ولولا ركوعهم وسجودهم لارتفعت الأمطار ، وتعطلت الأرض

من الزروع والثمار ، فهم في دائرة إرادته ليس لهم عن مراقبة حضرته غفلة ولا قرار . إذا غلقت الملوك أبوابها رفعت لهم الأستار ، وإذا أرخت السلاطين حجابها تجلى لهم الواحد القهار ، فلو اجتجب عن أحدهم طرفة عين لدكت الجبال وزلزلت الأقطار ، ونادى قتيل الوجد منهم بلسان الاشتياق والاشتهار .

### [كان وكان]

|                      |                    |                    |                 |
|----------------------|--------------------|--------------------|-----------------|
| من ذا الذي في الحضرة | يشرب بكاسات الصفا  | من صرف صافي المحبة | ويستطيع فرار    |
| قوم تراهم نشاوى      | من وجدهم بحبهم     | وهم حيارى سكارى    | من غير شرب خمار |
| لهم حقائق رقائق      | على الخلائف تنعجم  | محلها من بوارق     | خوارق الأفكار   |
| هبت عليهم نسيمه      | فاستنشقوا من نشرها | طافت سحيراً ومنها  | تنسموا الأخبار  |
| وحين وافت وطافت      | تفردوا وتجردوا     | عن الوجود وولوا    | عن سائر الأغيار |
| قلوبهم معمورة        | بحب مولاهم فلا     | يضرهم في الظاهر    | ملايس الإنكار   |
| فازوا بما قد حازوا   | من المكارم والنهي  | وأحرزوا بالعناية   | نهاية الأوطار   |
| نالوا المنا والخطوة  | بقرهم عند الملك    | وخصهم بالجلوة      | في خلوة الأسحار |

فسبحان من قرب أقواماً لحضرته وحجبهم عن الأغيار ، وأبعد آخرين فضرهم بسيف البعد والانتهاز ، نصب فخّ المحبة للسيد فعلق بمجل حبه الجنيد ، فحصل له العز والفخار ، وأرسل عقبان التوفيق إلى شقيق فجذبه بزيق التمزيق والافتقار ، ومنّ بالمزيد على أبي يزيد فلزم التجريد وطلب الزيادة والإكثار ، وجاد بالمعروف على معروف فعمر قلبه بالمعرفة والاستبصار ، وتفضل على الفضيل فشمّر في الخدمة الذيل وأدلج في طلبه وسار ، وسقى صرف المزاج للحلاج فسكر وهاج وباح بالأسرار ونادى بلسان وجده ، وقد خرج عن حده ولم يطق اصطبار .

### [كان وكان]

|                    |                      |                    |                 |
|--------------------|----------------------|--------------------|-----------------|
| ياذا الذي قد سقاني | من صرف كاسات الهوى   | وقال لي لا تغني    | فتهتك الأستار   |
| ولو سقى فرد قطرة   | مما سقاني للجبل      | غنى وصاح وأضحى     | بين الجبال غبار |
| القوم دارت عليهم   | في الليل كاسات الصفا | فأصبحوا في البرايا | سكرى بغير خمار  |
| منها الجنيد تروى   | ويشر بشر بالفرح      | ومن سناها الشبلي   | بدت له الأنوار  |
| وكم كتم ابن أدهم   | حاله وذو النون اخفى  | فصار بين الندامي   | معروف بالإشهار  |
| قوم دعوا فأجابوا   | وطهروا أسرارهم       | وأخلصوا في المحبة  | لعالم الأسرار   |
| فهم رجال الحقيقة   | وهم ملوك الآخرة      | وهم شيوخ الطريقة   | لهم سما المقدار |
| يا فوز من كان سالك | طريقهم أو يقتدي      | أو يهتدي بهداهم    | ويتبع الآثار    |
| بهم عن الخلق تدفع  | كل البلايا والمحن    | لولا سناهم لكانت   | تزلزل الأقطار   |

فهم طراز الدنا وهم شمس للهدى بهم ترى الأرض تنبت وتنزل الأمطار  
قوله عز وجل : ﴿الْآيَاتِ أَلْيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ : [يونس : ٦٣] قال  
ابن عباس رضي الله عنهما : لا خوف عليهم في الدنيا ، ولا هم يحزنون في الآخرة ، بل  
يتلقاهم مولاهم بالرحب والتكريم ، ويعطيهم النعيم المقيم . وعن أنس بن مالك ؓ قال :  
قل لرسول الله ﷺ : « من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ فقال : الذين  
نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، واهتموا بآجل الدنيا حين اهتم الناس  
بعاجلها فأमतوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما عملوا أنه ستركهم ، فما عارضهم من  
نائلها عارض إلا رفضوه ، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه . خلقت الدنيا عندهم  
فما يجدونها ، وخربت بينهم فما يعمرونها ، وماتت في صدورهم فما يحيونها بل يهدمونها ،  
فيننون بها آخرتهم ويبيعونها ، فيشترون بها ما يبقى لهم ، نظروا إلى أهلها صرعى قد خلت بهم  
المثلاث فما يرون أماناً دون ما يرجون ، ولا خوفاً دون ما يجدون » :

قوم جفوا لذة دنياهم      وآثروا خدمة مولاهم  
فلا قرار منهم دونه      ولا جنود النوم تغشاهم  
واصلهم والناس في غفلة      عنهم وقد أكرم مشواهم  
فهو ولي لهم دائماً      أكرم أولاهم وأخراهم

[وقال ابن ظفر رحمه الله عليه] : دخل أبو يزيد البسطامي رحمه الله عليه الكتاب وهو صغير  
فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ ۖ وَالْأَيْلُ الْأَقِيلُ﴾ : [المزمل : ٢٠-١] قال لأبيه طيفور  
ابن عيسى : يا أبت من ذا الذي يقول له الحق سبحانه وتعالى هذا الخطاب ؟ فقال : يا بني ذاك  
محمد ﷺ ، فقال : يا أبت مالك ما تفعل كما كان يفعل رسول الله ﷺ ؟ فقال : يا بني أمرخص  
به رسول الله ﷺ ؟ ثم خفف عنه في سورة طه . فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ  
تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ : [المزمل : ٢٠] قال : يا أبت إنني أسمع أن  
طائفة كانوا يقومون من الليل ، قال أبوه : نعم أولئك أصحابه ﷺ ، قال : يا أبت فأني خير  
في ترك شيء فعله رسول الله ﷺ وأصحابه ؟ قال : فكان أبوه بعد ذلك يقوم الليل كله فانتبه أبو  
يزيد ليلة فقال : يا أبت علمني أصلي معك ، قال : يا بني ارقد فإنك صغير بعد ، فقال : يا  
أبت إذا كان يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم وقال لي ربي : ما فعلت ؟ أقول لربي : قلت  
لأبي : علمني أصلي معك ، فقال لي : ارقد فإنك صغير بعد ، فقال أبواه : لا والله ما أريد  
أن تقول ذلك ، ثم علمه يصلي فكان بعد ذلك يقول الليل ويصلي غالبه :

أيها القائمون في حندس الليل  
قد وصلتكم حمى الوصال فطيّبوا  
هذه دارنا ونحن كرام  
إن طلبتم قرى وجدتم لدينا  
قد رفعنا حجابنا فاشهدونا  
وادخلوا خلوة الرضا بسلام

فلله درّ أقوام ما زالت نياق وجدهم تسرى في ليل نيل قصدهم حتى بلغوا المنزل وحصلت لهم العناية وكان عمر بن عبد العزيز يأتي المساجد المهجورة في الليل فيصلّي فيها ما يسره الله عز وجلّ فإذا دخل وقت السحر وضع جبهته على الأرض ومرغ خده على التراب ولم يزل يبكي إلى طلوع الفجر ، فلما كان بعض الليالي فعل ذلك على العادة ، فلما فرغ ورفع رأسه من صلاته وتضرعه وجد رقعة خضراء قد اتصل نورها بالسما مكتوب عليها : هذا براءة من النار من الملك العزيز ، لعبده عمر بن عبد العزيز :

طلعت شمس طويلع فلي الهنا  
وحنى على فقري إليه وذلتني  
هبت نسيمه قربه لمحبه  
رفع الحجاب عن الجمال وقال لي  
وغدت عليّ لطائف من قربه  
وأنا لني ما أرتجيه من المنا

[وقيل] : صعد بن عمار الواعظ يوماً منبره بالعراق فأخذ في المواعظ والتخويف والزجر والتعنيف ، حتى كادت النفوس تهيم قلقاً وتموت فرقاً ، وكان في المجلس شاب مسرف على نفسه خائف من حلول رمسه ، فانصرف وقد أثرت المواعظ في قلبه ، وندم على ما كان من ذنبه ، وأتى إلى أمه فقال لها : يا أماه دونك وما تريد من كسر لهو الشيطان وما كنت أعددت لمعصية الرحمن ، وأخبرها بحضوره مجلس بن عمار وما حصل له من الندم على الذنوب والأوزار ، فقالت : يا ولدي الحمد لله الذي ردك إليه رداً جميلاً ، وأنقذك من ذنوب كنت بها عيلاً ، وإني لأرجو أن يكون الله تعالى قد رحمك بيكائي عليك ، وقبلك وأحسن إليك ، فكيف كان حالك يا ولدي عند سماع الموعدة ؟ فأنشد :

شمرت للتوبة أذيالي  
وصرت ذا طوع لعذالي  
طاعة ربي انحل أفضالي  
يا أم هل يقبلني سيدي  
واسوأتا إن ردي خائباً  
أو صد عني حين إقبالي

ثم أقبل الفتى على صيام النهار وقيام الليل حتى نحل جسمه وذاب لحمه ودق عظمه

واصفر لونه فأتته أمه بقدرح فيه سويق ، وقالت له : أقسمت عليك يا بني بالله إلا ما شربته فقد أجهدت نفسك . فلما صار القدرح في يده جعل يبكي ويضطرب ويذكر قوله تعالى : ﴿ يَجْرَعُهُ، وَلَا يَكَاذِبُ سِغَةً ۖ ﴾ : [إبراهيم : ١٧] ثم صرخ صرخة عظيمة وخر ميتاً ، هذا والله مقام الخوف ، يا من ضيع زمانه في لعل وعسى وسوف :

|                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| على باب من أهوى يطيب التخضع   | وإن أكثر اللوآم عدلاً وأوسعوا |
| وفي حبه يخلو غرام ولوعة       | ووجد وتبريح وشوق وأدمع        |
| ويجمل تعفير الحدود على الثرى  | لمرضاته إن كان ذلك ينفع       |
| ومن لم يخاطر في هواه بروحه    | فذاك برؤيا الحسن لا يتمتع     |
| ومن كان مشتاقاً محباً مولهاً  | حشاشته من شوقه تتقطع          |
| إذا قام في جنح الظلام مراقباً | رأى النور من طور الأوبة يلمع  |
| ناداه من يهواه فز بجمالنا     | فدونك عيشاً لم يكن عنه مدفع   |
| وشاهد جمالاً لا يحدّ لواصف    | وبادر إلى رؤياه إن كنت تسرع   |
| محب ومحبوب وساعة خلوة         | وقرب ووصل ليس فيه تمنع        |

فيا أرياب المعاملة في ظلام الليل ، فسبحان من أقامكم وأقعدنا يا معشر التائين ، سبحان من قربكم وأبعدنا ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ ﴾ : [إبراهيم : ١١] .

[قال ذو النون المصري رحمة الله عليه] : ضاق صدري في بعض الأيام فخرجت أتمشى على شط النيل : فمرّ بخاطري العبور إلى ذلك الجانب فركبت سفينة وجعلت رأسي بين ركبتيّ فلم أرفعها حتى توسطت البحر ، فلما رفعت رأسي رأيت عن يميني جارية ذات حسن وجمال ، وفي حجرها عود وبين يديها خمر وعن يمينها شاب حسن الشباب نقيّ الأثواب ، فقلت في نفسي : يا نفس بعد عبادة سبعين سنة وقعت في هذه السفينة بين قوم خارين يعصون الله بالإجهار ، فالتفتت إليّ الجارية وقالت لي : يا شيخ تشرب شيئاً ؟ فقلت : إن سقاني مولاي شيئاً شربت ، فأشارت الجارية إلى الغلام أن املاً له الكأس واسقه فملاً الكأس وأعطاني . فلما حصل الكأس في يدي لحقني وجد ، فقالت الجارية : يا شيخ لم لا تشرب من شرابنا ؟ أتريد أن أغني لك حتى تشرب ، أو تغني أنت لنا حتى نشرب ؟ فقلت : بل أغني لكم حتى تشربوا ، فقالت : غنّ لنا حتى نسمع غناءك فأنشدت :

|                        |                           |                       |
|------------------------|---------------------------|-----------------------|
| أحسن من قينة ومزمار    | في ظلمة الليل نغمة القاري | يا حسنه والجليل يسمعه |
| بحسن صوت ودمعه جاري    | وخده في التراب عفره       | وقلبه في محبة الباري  |
| يقول يا سيدي ويا أُملي | أشغلني عنك ثقل أوزاري     | اغفر ذنوبي لأنها عظمت |

ولم تنزل يا جليل غفاري      ذاك غداً في الجنان مسكنه      بدار قدس بقرب جبار

يسكن مع زوجة تشاركه      يا حسن مختارة لمختار

فلما سمعت الجارية ذلك خرّت مغشياً عليها ، فلما أفاقت خلعت ما كان عليها من الديباج وكسرت العود ورمت بالخمر إلى البحر وقالت : يا شيخ إذا تبت إليه يقبلني ؟ قال : نعم ، هكذا قال في محكم الآيات : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ : [الشورى : ٢٥] فكشفت رأسها وقبلت يدي ، وقالت : يا سيدي أنت كنت السبب في المصالحة فاسأله فيما مضى العفو والمسامحة . قال ذو النون المصري : ثم نزلنا من السفينة وتفرقنا فلم أرها بعد ذلك . فلما كان في بعض السنين حججت إلى بيت الله الحرام فبينما أنا أطوف بالبيت وإذا بجارية شعثناء وهي متعلقة بأستار الكعبة تبكي وتتضرع وتقول : إلهي بسكري البارحة وبخماري إلا ما غفرت اليوم أوزاري ، فقلت : مه يا جارية في مثل هذا المقام تقولين هذا الكلام ؟ فقلت : إليك عني يا ذا النون ، لما بت البارحة بكأس الهوى مسرورة ، أصبحت اليوم بحب مولاي مغمورة . فقلت لها : من أخبرك أني ذو النون ؟ فقلت : يا شيخ أنا الجارية التي تبت على يدك في نيل مصر ، فقلت : وأين ذلك الحسن والجمال ، فأنشدت :

ذهبت لذة الصبا في المعاصي      وبقي بعد ذلك أخذ النواصي

ومضى الحسن والجمال ومالي      عمل أرتجيّه يوم الخلاص

غير ظني بالله وهو جميل      فيه أخلص غاية الإخلاص

ثم قالت : يا ذا النون قف مكانك حتى أعود ، فغابت لحظة ثم أقبلت ومعها طبق وعليه رطب وتين وعنب في غير أوانه ، فوضعت بين يدي فاختلج في قلبي أني بعد عبادة سبعين سنة لم أصل إلى ما وصلت إليه هذه الجارية ، فقلت لي : يا شيخ لما تبت إليه ، واعترفت بين يديه ، رزقني صدق التوكل عليه ، ثم أنشدت :

عش غريباً ولا تذلل لخلق      واطلب الرزق في بلاد الحبيب      ثم سر في البلاد شرقاً وغرباً

وتوكل على القريب المجيب      فعسى أن تنال ما ترتجيّه      بيد اللطف من مكان قريب

قال ذو النون : ثم التفت فلم أرها . هذه والله صفات التائبين ، وهذه علامات المقربين :

|                    |                     |                    |                    |
|--------------------|---------------------|--------------------|--------------------|
| إن لله عبداً       | طلقوا الدنيا وهاموا | فله ذلوا فعزوا     | وله صلوا وصاموا    |
| هجروا الأهل وساحوا | وعلى الأوراد داموا  | فإذا ما رقد النسا  | س ونام الخلق قاموا |
| فلهم في الليل أحوا | ل إذا جن الظلام     | وعلى الأفواه منهم  | حذر اللهو لجام     |
| تركوا الشهوة زهداً | وسواء مستهام        | فهني للعالم حلّ    | وعلى القوم حرام    |
| أخلصوا في الحب لله | وعلى الخير أقاموا   | فعلى الدنيا إذا لم | يوجدوا فيها السلام |

يا هذا لا تبرح عن الجناب ولو طردت ، ولا تزل عند الباب ولو منعت .

[قيل] : إن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة التي نهي عنها ونسي عهد ربه سقط عنه لباس الجنة واستوحش منه كل شيء فيها ، فولى هارباً ، فجعل يستتر بورق الجنة ، فناداه ربه جل جلاله : أتفر مني يا آدم ؟ قال : لا يارب ، ولكن حياء منك ، فقال له الله تعالى : أما خلقتك بيدي ، أما أسجدت لك ملائكتي ! أما نفخت فيك من روحي ! أما أسكنتك في جواري ! أما أبحتك جنتي ، أخرج من جواري فلا يجاورني من عصائي ، فبكى آدم عليه السلام ما شاء الله ، ثم قال : إلهي إن لم ترحمني أنت فمن يرحمني ؟ . فأوحى الله تعالى إليه أن قل : سبحانك الله وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتاب عليّ إنك أنت التواب الرحيم ، فهذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه ، هذا قول مجاهد وجماعة من المفسرين :

وإننا ليرضينا رجوع وصالكم فردوا لنا ذاك الوصال كما كانا

وكنا نغطي في الدنو غرامنا ونكتم ما نلقي فقد كان ما كانا

[وعن كعب الأحمار رضي الله عنه] قال : إذا كان يوم القيامة تخرج نار من قعر بحر عدن فتسوق الناس جميعاً إلى الموقف ، فبينما هم سكارى حيارى عطاشى مروّعين من هول الموقف إذ تجلى الحق سبحانه وتعالى فتشرق الأرض من نوره فينظر الخلائق بعضهم بعضاً وتنظر الوالدة إلى ولدها الذي كانت تشفق عليه في دار الدنيا فتعرفه فتناديه : يا ولدي أما كان بطني لك وعاء ، أما كان حجري لك وطاء ، أما كان ثديي لك سقاء فيقول : يا أماه ما الذي تريدن ؟ فتقول : قد أثقلتني ذنوبي فتحمل عني منها ذنباً واحداً ، فيقول : هيهات كل نفس بم كسبت رهينة ، يا أماه إذا حملت عنك فمن يحمل عني ؟ فبينما هم كذلك إذا بمناد من قبل الحق ينادي : يا فلان ابن فلان هلم إلى العرض على الله سبحانه وتعالى ، فإذا سمع ذلك النداء تغير لونه واضطربت جوارحه حياء من الله تعالى ، فإذا نظرت أمه إلى ما حل به من الوجل قالت له : ما حالك يا ولدي ؟ فيقول : يا أماه قد نوديت للعرض على الله عز وجل فكيف لي بالهرب منه ، أم كيف لي بالخلاص ؟ فبينما هي كذلك إذا أقبل ملكان يقبضان عليه ويجرانه فإذا نظرت أمه إليهما جذبتة إلى صدرها وغطته بشعرها ودفعت عنه الملكين بجهدهما فلم تقدر على دفعهما عنه ، فلما علمت أن لا طاقة لها بهما بكّت وقالت : والذي بعثني من مرقي لو وجدت سبيلاً لما مكنتكما منه ، ثم تودعه وهي تبكي وتقول : سألتك يا ولدي بالذي استدعاك للعرض عليه والحساب بين يديه إن أنت نجوت فلا تنسني فقد طال وقوفي وعظمت حسرتي واشتدّ كربى وعطشي . قال : فيأتي به الملكان إلى الملك الموكل بسدرة المنتهى ، فيقول له : من أيّ أمة أنت ؟ . فيقول له : أنا من أمة محمد ﷺ فيقول له : طوبى لك ولأمة محمد ﷺ ثم يزجه في النور فلا

يدري أين يذهب يميناً أو شمالاً أو خلفاً أو أماماً ، وإذا النداء من العليّ الأعلى اثبت فأنا ربك ، فسكن جوارحك وهدئ قلبك ، فوعزّي وجلالي إني لأشفق عليك من أمك حين جذبتك إليها وضمنتك إلى صدها . ثم يقول له : عبدي اقرأ كتابك ، قال : فيقرؤه فإذا مرّ بسيئة أخفاها وإذا مرّ بحسنة جهر بها ، فيقول الله تعالى : عبدي لم تجهز بالحسنة وتخفي السيئة فيبكي ويقول : يا رب تعلمت منك أنك تظهر الجميل وتستتر القبيح :

أنت الذي لم تنزل بالعفو متصفاً تجود حلمًا على العاصي وتستره  
تخفي القبيح وتبدي كل صالحة وتغمر العبد إحسانًا وتشكره

ثم يقول الله عزّ وجل : عبدي كيف أخفيت ذنوبك وعيوبك عن الخلائق وبارزتني بها ، أما علمت أني مطلع عليك وناظر إليك ، فيقول : سيدي ومولاي مربي إلى النار ، فلا طاقة لي بالتوبيخ والعار ، فيقول الله عزّ وجلّ : إن أمرت بك إلى النار ، فأين جودي وكرمي وأين حلمي ومغفرتي ؟ يا ملائكتي انطلقوا بعبدي إلى جنتي بفضلي ورحمتي :

من ذا سواك يجود قبل سؤاله ويمود للعاصين بالغفران  
وإذا أتاه الطالبون لعفوه غفر الذنوب وجاد بالإحسان

ثم يقول : إلهي وسيدي إن لي والدة كانت في الدنيا تشتاق إليّ وتشفق عليّ وقد رأنتني اليوم واستجارت بي وطمعت أنني أجيرها ، إلهي وسيدي إن كنت قد عفوت عني فاجعلها موضعي وهبها مكاني فلا طاقة لها بما هي فيه ، قال فيقول الله عزّ وجلّ : وعزّي وجلالي ما فرقت بينكما إلا وقد رحمتكما ، يا ملائكتي انطلقوا بهما إلى جنتي وأنا أرحم الراحمين :

ما زلت أعرف بالإساءة دائماً ويكون منك العفو والغفران  
لم تنتقصني إن أسأت وزدتنني حتى كأن إساءتي إحسان  
تولي الجميل على القبيح تكراً أنت الكريم المنعم المنان

يا هذا قف على الباب تكتب من الأحباب ، والزم الآداب تحشر مع الطلاب :

يا خجلة العبد من إحسان سيده يا خجلة العبد من إحسان سيده  
فكم أسأت وبالإحسان قابلي فكم أسأت وبالإحسان قابلي  
بلطفه وبفضل منه عرفني بلطفه وبفضل منه عرفني  
يا نفس كم بخفي اللطف عاملي يا نفس كم بخفي اللطف عاملي  
يا نفس كم زلت بها قدمي يا نفس كم زلت بها قدمي  
يا نفس توي إلى مولاك واجتهدي يا نفس توي إلى مولاك واجتهدي  
يا نفس من منقذي يوم الحساب غداً يا نفس من منقذي يوم الحساب غداً

ومن لقلب إذا لج الغرام به  
قم يا مشوقاً إذا ما الليل جنّ تجد  
في كل شيء له معنى تشاهده  
وكيف يبعدني عن بابه وإلى  
ولي شفيع إليه لا يردّ وفي  
محمد المصطفى المختار من مضر  
أموت شوقاً ولم أحظى برؤيته  
تالله ما في فؤادي قط جارحة  
صلى عليه إله العرش ما طلعت  
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين .

### المجلس السادس والثلاثون

#### في ذكر النيل المبارك

الحمد لله قاصم الجبابرة قهراً ، وكاسر الأكاسرة جبراً ؛ الذي فلق الحب وأنبت منه برّاً ، وأطلع الأبّ وعده للأنعام برّاً ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ : [الفرقان : ٥٤] نطق الكائنات بفضلته فلا غرو أن فاهت الألسن بذكره شكرّاً ، ﴿ فَسَلَكَهُ يَتَّبِعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ : [الزمر : ٢١] وقسمه بحكمته مدّاً وجزراً ، فالأنهار تتخرق ، والغدران تتدفق وجعل لكم نيلكم الآية الكبرى ، فهو أعجبها رفداً ، وأعذبها ورداً ، وأطيبها نشرّاً ، وأوفرها وقرأ ، جعله دالاً على غريب قدرته ، وعجيب حكمته فسبحان من خص به مصرّاً ، فأعجب له من بحر هو في الحر في انقضااض ، وفي البرد في انتفااض ، فإذا غاض كل ماء فاض ، وإذا أخذ الشتاء في الإغراض ، أتى هو ببلوغ الأغراض ، وملاً القلوب فرحاً وبشرّاً ، فكلما هاج لمفارقة خلجانه ، توحم توحم الغيور ، وماج بمحامل السرور برّاً وبحراً ، فتأمل كيف أقبلت قوابل مقياسه في يوم نفاسه ، تعالج فتح رحم انخباسه ، فكلما تنفس نفساً من أنفاسه ، ملأ

الوهاد مدّاً وذخراً ، وغمر البلاد بطناً وظهراً ، وعمّ العباد طيباً ونشراً ، فكّم جبر بكسر  
خليجه كسراً ، ولكم أطلق بانطلاقه أسرى ، ولكم أبرد عند ورده كبداً حرّاً :

تراه إذا هبت به نسمة الصبا      تجمده نظماً وترسله نشرًا  
هو النيل إلا أنه عند نيله      ترى كل قطر قد أسال به بحرا  
يجود إذا سنّ السحاب بوبله      فتتهز منه الأرض إذا حملت وقرا  
يفيض إذا غاض المياه كأنها      بجدوله تسري فسبحان من أسرى  
حكى ملكاً كل المياه رعية      يفرقهم طوراً ويجمعهم أخرى

فإذا أصبحت الرياض قفراً ، وشكت الحياض بعد غناها فقراً ، وضجت عطاشها في الآفاق  
سهلاً ووعراً ، وقع مغيث الإغاثة والإجابة على رقعة الإنابة : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ : [الشرح : ٦]  
وبعث من نيل نيله نوالاً مع الجاريات يسرا ، فأصبحت هنالك الأرض باسمه ثغرا ، ووجدت  
بعد اليبس خضرا ، واكتسبت بعد الإفلاس حللاً خضراً :

وجداد عليها النيل بالنيل فاغتدت      بأزهارها تحكي السماء أنجما زهرا  
لها كل عام كسوة بعد كسوة      فأول ما يهدى لها الكسوة الخضرا

فسبحان من قدرته لا تضاهي ، وحكمته لا تباهي ، ونعمته لا تتناهي ، أوسع للمذنبين  
عفواً ، وأجزل للمطيعين أجراً ، ما أعرض معرض عن جنبه إلا لقي في طريقه خسراً ، ولا  
انحرف منحرف عن بابه إلا وجد حلو شرابه مرّاً ، فيا أيها الحائم حول حمى عناده لقد جئت  
شيئاً نكراً ، ويا أيها الهائم في فلوات إلحاده لقد صبرت على ما لم تحط به خبراً ، أما تخاف  
سطوة : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا ﴾ : [النمل : ٥٠] تالله لقد أوضح لك السبيل فما  
أبقى لمقصر عذراً وبين في الدليل . فقال : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ : [فاطر : ١٨] فلله درّ  
العارفين تيقظوا لخدمة مولاهم من رقعات دنياهم فأفنوا أوقاتهم تسيحاً وذكرّاً ، أضرم قلوبهم  
من محبته جمرّاً ؛ وأدار عليهم من كؤوس محبته خمرّاً ، فلما دارت السقاة ، وغنت الحداة ،  
مالوا بأصوات نغمات ذكره طرباً وسكراً :

أدار عليهم من مدامة حبه      كؤوساً من التقوى فأبدت لهم سرّاً  
فأكرم له بجرّاً جلا ظلمة الصدا      وقد ملأ الأقطار والسهل والوعرا  
له فرحة عند الوفاء بحقه      فمن أمه يلقي التهاني والبشرى  
فرؤيته تجلو عن القلب همه      وذكراه يشفي السقم والقلب والصدرا  
فمصر له فيها الفخار على الربا      وقد أصبحت تسمو على غيرها قدرا

وأُمسّت به الآفاق تزهو بحسنه كما قد كسا البلدان من نشرها عطرا  
 فانظر يا هذا بعين الفكرة كيف ساقته القدرة من البلاد الأسوانية ليعم نفعه البرية فهو  
 أعجب الأشياء وأغربها وأحسنها في المنظر وأنسبها وأحلاها في المياه وأعذبها ، فسيحان من  
 حقق به الظنون ، وأقربه العيون وجعله حياة للأرواح فانبسط بقدرته ، وساح في فساح  
 الأقطار والجهات لإحياء النبات والغصون وساق من بحر إنعامه إلى خلجان إكرامه ﴿ مَاءٌ لَكُمْ مِنْهُ  
 شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٥﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ  
 الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ : [النحل : ١٠-١١] فهو الذي أجراه بحكمته ،  
 وأنشأه بقدرته ولم يخيب الظنون ، وأذن لشهود عموده عند وفاء حقوقه وحدوده بحسن النظام  
 والقانون في كسر سده وفتح كسره فانجبر بكسره قلب كل محزون ، وعمت بركته البرك  
 والخلجان ، وسار بيد القدرة إلى البلدان ، فروى به الظمآن وشبعت برؤيته البطون ،  
 ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ إِلَى الْمَاءِ ثُمَّ جَعَلْنَا الْجِبَالَ مَدَارٍ فَتُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ :  
 [السجدة : ٢٧] .

|                           |                           |
|---------------------------|---------------------------|
| قُرت بحمد الله منا العيون | مذ هطلت سحب وفاضت عيون    |
| وعم لطف الله سبحانه       | كل الورى فليحمد الحامدون  |
| وأقبل النيل بأمواجه       | كأنه جيش السحاب الهتون    |
| يحيابه الزرع وينمو به     | ومنه تكسى عاريات الغصون   |
| وتكتسى الأرض به بهجة      | وتبرز الأرض بحسن الفنون   |
| فنسأل الرحمن نفعاً به     | فهو المرجى عند حسن الظنون |
| وقد تشفعنا بخير الورى     | ومن له في القلب حبّ مصون  |
| صلى عليه الله ما غرّدت    | حمام الأيك وأبدت شجون     |

[وحي] أن فرعون كان يتمرد ويدعي الفرعة والطغيان في الأرض وكان يضل قومه بهذا  
 النيل فإذا كان يوم النوروز وقد وفى النيل أجله وبلغ نهايته أمر بأن ينادى في الناس : إن فرعون  
 قد وفى لكم نيلكم فاسجدوا له فكان جهال القوم يعتقدون ذلك ، فلما كان في بعض السنين  
 قصر النيل عن وفائه ولم يأذن الله تعالى له بالطلوع فاستشعر الناس بالجوع وأحسوا بالقحط  
 فاجتمعوا إلى فرعون وقالوا له : قد هلكنا وهلكت دوابنا وأهلنا أولادنا فإن كنت إلّٰهنا فأجر  
 لنا نيلنا . فقال : لكم ذلك ، ثم إنه عمد إلى مسح وقلنسوة من شعر وكيس فيه رماد ،  
 ومضى إلى مكان المقياس الآن وكانت خربة في الجزيرة المعروفة بالمقياس الآن فأمر أن لا يتبعه

أحد من قومه ولا من رعيته ودخل الخربة ونزع ثياب الملك والتاج الذي كان على رأسه ولبس المسح والقلنسوة الشعر وفرش الرماد وجعل يتمرغ عليه ويبكي ويسجد لله عز وجل ، ويمرغ وجهه على الرماد وهو يقول : إلهي وسيدي أعلم أنك إله السموات والأرض وإله الأولين والآخرين ، ولكن غلبت عليّ شقوتي وزدت في عصياني وطغياني وأنت إلهي وأنا عبدك وقد حكمت عليّ بما حكمت فلا تفضحني بين قومي وأنت أكرم الأكرمين فما استتمّ كلامه حتى أذن الله للنيل أن يوفي في تلك الساعة وأن يسير معه حيثما سار فكان فرعون يسير بين قومه والماء يبلّ أذياله فكانوا يغمسون أكماتهم في الماء والطين ويضربون بعضهم بعضاً فرحاً به فصارت في مصر سنة إلى الآن ويقولون نيروز أي طلع النيل ، فيما هذا إذا كان هذا عدو الله وقد أخلص الله طرفه عين فأعطاه الله تعالى ما طلب وستره في قومه ولم يفضحه عندهم فكيف بمن أخلص الله عز وجل عمره كله ولم يبرح في طاعته وخدمته ماذا يريد أن يعطيه في الآخرة ، وكذلك العبد العاصي إذا تاب من ذنوبه واعترف بعبوبه وتضرع إلى مولاه في سره وجهره فالله تعالى أكرم من أن يعذبه أو يفضحه على رؤوس الأشهاد يوم القيامة .

[وحدثني ابن مسعود رضي الله عنه] أنه إذا كان يوم القيامة وأراد الله بعبد خيراً أعطاه كتابه جهراً وقال : اقرأه سراً حتى لا يفضحه بين خلقه فيقرأ كتابه سراً فلم يسمعه أحد فتقول الملائكة : إلهنا هذه عناية لم تسبق لأحد من العصاة وقد أوعدت من عصاك أن تعذبه وتحرقه بالنار فيقول سبحانه وتعالى : يا ملائكتي إن أحرقت في الدنيا بنار الجوع والعطش في الحر الشديد في شهر رمضان فلا أحرقه اليوم بالنيران ، وقد عفوت عنه وغفرت له ما أسلف من الذنوب والعصيان وأن الكريم المنان :

|                                |                             |
|--------------------------------|-----------------------------|
| أيها الهائم المشوق إذا ما      | شئت تبغي الرضا وتهوى لقانا  |
| غض عن غير حسننا كل طرف         | منك واحذر أن تشتغل بسوانا   |
| وتخضع ببائنا وتضرع             | وتذلّل لنا وقف بجمانا       |
| واعترف بالتقصير والعجز واندب   | في المعاصي عمراً مضى وزمانا |
| وتوسل بجاه خير البرايا         | وتوسل به تنال رضانا         |
| فهو نعم الشفيع في الخلق والحشد | مر ومن حوضه غداً ملائنا     |
| فعليه الصلاة منا إليه          | ما شئت أئكة لها أشجانا      |

[وقيل] : إنه كان سنة لفرعون إذا بدت أوحام النيل أن يأمر ببنات من بنات أهل مصر يجلونها بأنواع الحلبي ويلبسونها أفخر الخلل ويزينونها بأنواع الزينة كالعروس التي تزف إلى زوجها ثم يأمر بإلقائها في النيل كان دأبهم ذلك في كل سنة ، وكان عامة الناس وجهاهم

يعتقدون أن النيل ما يطلع حتى يرموا فيه العروس واستمر الأمر على ذلك إلى زمان خلافة عمر بن الخطاب ؓ وكان نائبه بمصر عمرو بن العاص ؓ ، فلما أنكر عليهم ذلك كتب كتاباً إلى عمر بن الخطاب يخبره الخبر فكتب له عمر كتاباً يردّ الجواب ورقعة يقول فيها : من عبد الله عمر بن الخطاب إلى نيل مصر : أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الواحد القهار أن يجريك ، فألقى البطاقة في النيل ، وكان أهل مصر قد أيقنوا بالغلاء فأصبحوا وقد أجرى الله تبارك وتعالى النيل وطلع ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، كل ذلك من بركات عمر بن الخطاب وحسن إيمانه ؓ ، وأراح الله المسلمين من تلك البدعة ، وأمر عمرو بن العاص الناس بالشكر لله والثناء عليه والتوبة من المعاصي وأبطل ما كانوا يفعلونه من المنكر ورمي البنات في الماء ، فلما رأى القبط ما فعله عمر ؓ ساءهم ذلك وأرادوا أن يقووا دينهم ويكون ذلك منسوباً إليهم فاحتالوا بحيلة الشهيد الذي يرمونه في التابوت أو ان الزيادة واتخذوه عيداً إلى الآن ، وكذلك أحدثوا الخمسة أيام التي يسمونها النسيء : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَهُ، عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ، عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سَوَاءٌ أَعْمَلُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : ٣٧] فهذا في دينهم طغيان ، ونحن بحمد الله تعالى قد خصنا الله تعالى بأشرف الأديان وأوضح لنا فيه طرق الإيمان وخصنا بشفاعة سيد الأكوان محمد المصطفى سيد ولد عدنان ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله السادة الأعيان ، وأزواجه وذريته صلاة دائمة في السر والإعلان ، ول بعضهم في هذا المعنى :

من عند ربك تأت فاجر بأمره  
فالله ييسط بره في بره  
ملأ الإله بيوتها من بره  
إلا بإذن مليكه فبعذره  
والكفر يركض في جوانب صدره  
ذا النيل إلا أن رموه بنحره  
وشهيد مسراه وطينة بثره  
عند الإله بحمده وبشكره  
وفقيرنا بالالتذاذ بفقره  
فبذاك أخبر عمه في شعره

يا أيها النيل المبارك إن تكن  
أو إن تكن من عند نفسك تأتنا  
كم من بلاد ليس تعرف أرضها  
إن كان دفعك لا يجيء تأدباً  
قال الصليبي اللعين بجهله  
ذا العام لم يرموا الشهيد فلم يفي  
هون به وبشهره ونسيئه  
نحن الذين لنا بجاه محمد  
ما يرتجيه غنيا بغناؤه  
ندعو ونستسقي الغمام بوجهه

وقد استجرنا بالنبي محمد وبآله وبصحبه وبسرّه  
صلى عليه الله ما سرت الصبا وأنت بطيب ثائه وبعطره

[إخواني] يفكروا في جريان هذا النيل كيف أمده الله تعالى بالمد الجليل ، والرزق الجزيل ،  
واللطف الجميل ، وجعله حياة للأرواح في المسير والمقيل ، فلو منعه منكم مانع أو قطعه عنكم  
قاطع لضاقت بكم الرحاب ، وتقطعت بكم الأسباب ، وحلت بكم الأمور الصعاب ، ولكن  
ترحمون بالأطفال الرضع ، والمشايخ الركع ، والدواب الرتع ، والحق سبحانه لم يمنعه عنكم بخلاً  
عليكم برزقه ، ولا تعجلاً لعقوبة خلقه . وإنما يرسله رحمة إليكم وإشفافاً عليكم شفقة لا تشبه  
شفقتكم على آبائكم . ويفعل معكم من اللطف والتدبير ما لا يفعله تدبير آبائكم . فإنه  
سبحانه و تعالى يسوقه إليكم في وقت احتياجكم إليه ونفعه ، ويصرفه عنكم وقت حاجتكم إلى  
صرفه ودفعه ، ليتنفع كل منكم بغرسه وزرعه ، فكيف يعصى من هذه ملاطفته بعباده في سائر  
الدهور ، أم كيف يبارز بالخطايا وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وقيل في المعنى :

فيا من بات يخلو في المعاصي وعين الله شاهدة تراه أما تخشى من الديان طرداً  
وتحرم دائماً أبداً تراه تبارز بالمعاصي منك مولى على جهل يراك ولا تراه

أتعصى الله وهو يراك جهراً وتنسى في غد حقاً لقاه  
وتخلو بالمعاصي وهو دان إليك ولست تخشى من سطاها  
وتنكر فعلها وله شهود على الإنسان تكتب ما حواه  
فويل العبد من صحف وفيها مساويه إذا وافى مساه  
ويا حزن المسيء لشؤم ذنبه وبعد الحزن يكفيه جواه  
ويندم حسرة من بعد فوت ويكي حيث لا يجزي بكاه  
يعض يديه من ندم وحزن ويندم حسرة ما قد عراه  
فكن بالله ذا ثقة وحاذر هجوم الموت من قبل أن تراه  
وبادر بالتاب وأنت حي لعلك أن تنال به رضاه  
ولذ بالمصطفى خير البرايا رسول قد حباه واجتبهاه  
عليه من المهيمن كل وقت سلام عطر الدنيا شذاه

اللهم أفض علينا من بحر برك وإحسانك واجبر قلوبنا بعفوك وغفرانك ، وارو عطاش  
قلوبنا بنيل نيل رحمتك ورضوانك ، واكتب لنا بالأمن من الخوف توقيع أمانك برحمتك يا أرحم  
الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ،  
والحمد لله رب العالمين .

## المجلس السابع و الثلاثون

### في مناقب عمر بن عبد العزيز ؓ

الحمد لله الذي تعزّزَ في وحدانيته فهو الواحد العزيز ، وتفردَ في أزليته وأغرق العالم في بحر الحيرة و التعجيز ، أتقن خلق الموجودات فليس في إتقان صنعه نقص ولا تعويز ، زين شقة حلة السماء بنعوت البهاء و طرزها بالكواكب المشرقة أحسن تطريز ، ورقم كميتها برقم الشمس والقمر كالفضة النقية والذهب الإبريز ، وحرسها من استراق السمع بالشهب الثواقب أتمّ حرس و أمنع تحجيز ، وجلاها على عيون المعترين أولي العقل و التمييز ، و سطح الأرض على تيار الماء و أبرزها بقدرته أحسن تبريز ، وثبتها برواسي الجبال و جعلها مسكناً للرجال والأقطاب والصالحين الأنجاب ، وخلع عليهم خلع التكريم و التعزيز ، صرف عنهم الدنيا فلم يعرفوا الادّخار والتكنيز ، وجعلهم قائمين بحقه خلفاء على خلقه لمن فهم الإشارة والتلغيز ، وخص منهم من شاء بالرفق في بلاده و النصيحة لعباده كالصحابة ومن تابعهم مثل عمر بن عبد العزيز ، رضوان الله عليهم أجمعين .

قال محمد بن سعد رحمه الله : هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي ابن أمية بن عبد شمس ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ؓ ، ويكنى أبا حفص ، ولد بالمدينة في سنة ثلاث وستين وهي السنة التي ماتت فيها ميمونة زوج النبي ﷺ . وعن العباس بن راشد رحمه الله عليه قال : نزل بنا عمر بن عبد العزيز فلما رحل قال لي مولاي : اخرج معه شيعه فخرجت معه فمررنا بواد حية ميتة ملقاة على الطريق فزل عمر فدفنها ثم ركب وسرنا فإذا نحن بهاتف يقول : يا خرقاء يا خرقاء نسمع صوته و لا نرى شخصه . فقال عمر : أسألك بالله أيها الهاتف إن كنت ممن يظهر إلا ما أظهرت وأخبرت ما تخفي فقال : هذه الحية التي دفنتموها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لها يوماً : يا خرقاء تموتين بفلاة الأرض فيدفنك خير مؤمني أهل زمانه . فقال له عمر : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : أنا من الجن السبعة الذين بايعوا رسول الله ﷺ في هذا الوادي . فقال عمر : الله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم فدمعت عينا عمر ثم انصرف . وعن مجاهد قال : إن الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين سبعة مضى منهم خمسة و بقي اثنان . قال خارجة : أبو بكر وعثمان وعليّ و عمر بن عبد العزيز . وعن زيد بن أسلم قال : كان لعمر بن عبد العزيز سبط فيهِ درع من شعر وغل و كان له بيت في جوف بيته يصلي فيه لا يدخل فيه أحد غيره فإذا

كان في آخر الليل فتح ذلك السفط و لبس ذلك الدرع ووضع الغلّ في عنقه فلا يزال يناجي ربه ويبيكي حتى يطلع الفجر ثم يعيد الدرع والغل إلى السفط فهذا دأبه مدة حياته ﷺ [ مفرد ] :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

[ وقال ] الحارث بن يزيد جار عمر بن عبد العزيز رحمه الله : تالله لقد سمعت عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما أرحى الليل سدوله ، و غارت نجومه و هو يتململ تلملم السقيم ، و يبكي بكاء الحزين فكأنني أسمعه و هو يقول : يا دنيا إليّ تعرضت أم إليّ تشوّقت هيهات هيهات غري غيري قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كثير ، آه من قلة الزاد و بعد السفر ووحشة الطريق ، ثم أنشد :

من العار بعد النجدين هجوعي وغدر بهم أن لا تسح دموعي  
ولي زفرات كلما هبت الصبا يقوم منهن اعوجاج ضلوعي  
سلام على تلك الديار فإنها ديارى التى أشتاقتها وربوعي

كان عمر بن عبد العزيز ﷺ إذا صلى الصبح أخذ المصحف في حجره ودموعه تبّل لحيته فكلماً مرّ بآية تخويف ردّها فلا يتجاوزها من كثرة البكاء حتى تطلع الشمس ، واشوقاه إلى تلك الوجوه ، واطرباه عند سماع أخبارهم ، وأأسفاه على محو آثارهم :

وأأسفاه على فراق قوم هم المصاييح والحصون والمزن والأمن والتمني  
والخير والعقل والسكون بعدهم العيش ليس يصفو كيف تفاجئهم المنون  
فكل نار لنا قلوب وكل ماء لنا عيون

[ وعن يزيد بن حوشب ] قال : ما رأيت أكثر خوفاً من الحسن ومن عمر بن عبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله . وروي أن عمر بن عبد العزيز قرأ يوماً قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ : [ يونس : ٦١ ] فبكى بكاءً شديداً حتى سمعه أهل الدار فجاءت فاطمة زوجته فجلست تبكي لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما فجاء ولده عبد الملك فدخل عليهم وهم يبكون . فقال : يا أبت ما يبكيك ؟ فقال : يا بني ودّ أبوك لم يعرف الدنيا ولم تعرفه ، والله يابني لقد خشيت أن أكون من أهل النار . يا هذا كان عمر بن عبد العزيز يخاف مع عدله وأنت تأمن مع ظلمك وجودك . روي في المنام بعد اثنتي عشرة سنة ، فقال : الآن تخلصت من حسابي ، اسمع يا من أمن الأقدار ، وليس له عند مولاه اعتذار :

تشاغل بالدنيا أناس فأصبحوا عن الباب محجوبين قد منعوا القربا

وأهل التقى لله تسري قلوبهم إلى غاية نالوا بها المشرب العذبا  
فجالوا بنور العلم في روضة التقى بها أنفس الأبرار قد ملئت حبا  
همو قطعوا الدنيا بخوف وعيدهم فذكرهمو للموت أورثهم كربا

[ وعن عطاء رحمه الله ] قال : كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء كل ليلة ويتذاكرون الموت والقيام والآخرة فلا يزالون ييكون حتى كأن بين أيديهم جنازة ، وعن ابن حبان رحمه الله عليه قال : صليت الصبح خلف عمر بن عبد العزيز فقراً : ﴿ وَفَقَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ : [ الصافات : ٢٤ ] فجعل يكررها ولا يستطيع أن يتجاوزها من البكاء . وعن سفيان قال : كنت مفكراً في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها ثم بكى . وعن شيخ من أهل خراسان قال : لما أراد أبو جعفر بيت المقدس نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز إذا أراد بيت المقدس ، فقال : يا راهب أخبرني بأعجب شيء رأيته من عمر بن عبد العزيز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين : بينا عمر ذات ليلة على سطح غرفتي هذه . وكان السطح من رخام ، وأنا مستلق على قفائي فإذا بماء يقطر من الميزاب على صدري فقلت : والله ما عندي ماء ولا رشت السماء ماء فصعدت لأنظر فإذا هو ساجد ودموعه تنحدر من الميزاب . وعن الحسن بن الحسن رحمه الله قال : رأيت عمر بن عبد العزيز يبكي حتى بكى الدم . [ وروي ] أن عمر بن عبد العزيز منذ وُلِّيَ الخلافة لم يضع لبنة على لبنة ولم يحدث له دابة ولا امرأة ولا جارية حتى لحق بالله عز وجل ، وعن عمر بن مهاجر قال : قال لي عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتني ملت عن الحق فضع يدك في تلايبي وهزني ، ثم قل : ماذا تصنع يا عمر ؟ واعجابه هذا خوف عمر مع كماله فكيف أمئك مع نقصانك ، الدنيا مرآة الآخرة فما عملته في هذه رأيت في تلك ، فأنت اليوم تعمل وغداً ترى فإن كنت عاقلاً فابك على ما جرى ، وإن كنت نائماً فستذهب عنك لذة الكرى :

|                        |                          |                           |
|------------------------|--------------------------|---------------------------|
| لو بكت عينك يا هذا دما | ما تقدمت إلينا قدما      | كيف يصفو لك ود بعدما      |
| نشر الغدر عليك العلما  | نح علينا أسفاً أو لا تنح | واسكب الدمع علينا والدمما |
| إنما يصفو وداد لا مرئ  | حفظ العهد وراعى الذمما   | لو أردناك لنا ما فتنا     |
| ووصلنا جيلنا ما انصرما | ما رأينا منصفاً عامله    | منصف في صفقة فاختصما      |

[ إخواني ] كانت الدنيا إذا قدمت إلى الصالحين قدموها إلى الآخرة ، فأين نحن من القوم ، كم بين اليقظة والنوم ، كان عمر بن عبد العزيز يأتيه خراج اليمن فيدخله بيت المال ويبعث في الظلام ، وكان يقول : إذا سهرت في أمر العامة أشعلت سراجاً من بيت المال ، وإذا سهرت في أمر نفسي أسرجت على نفسي من مالي .

[ وروي ] أنه جاء خراج اليمن ومعه عنبر حمل على اثني عشر بغلاً فأحضر المال بين يديه ثم أمر به إلى بيت المال وأمر بالعنبر ، فلما حضر بين يديه سدّ أنفه وأمر به فأدخل بيت المال فقيل له : إن هذا العنبر لا ينقصه ريحه . فقال : إنما ينتفع منه بريجه . وروي أن ابنة لعمر بن عبد العزيز بعثت إليه بلؤلؤة ، وقالت : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن يبعث لي أختها حتى أجعلها في أذني فافعل . قال : فأرسل إليها بجمرتين ، ثم قال : إن استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنك بعثت بأخت اللؤلؤة إليك . وعن عيسى بن سنان رحمه الله قال : كان عمر ابن عبد العزيز لا يبني بناء ، فقيل له في ذلك ، فقال : ذلك سنة رسول الله ﷺ خرج من الدنيا ولم يضع لبنة ولا قسبة على قسبة . وعن أبي داود الرومي رحمه الله قال : كان لعمر بن عبد العزيز درجة يصعد عليها ، وكانت تتحرك كلما نزل أو طلع يرتاع منها فعمد بعض أصحابه فشدّها بطين ، فلما صعد عمر رآها قد تثبتت ، فسأل عنها ؟ فقيل : إن فلاناً بناها ، فقال : أعيدوها إلى ما كانت عليه فإني عاهدت الله تعالى من وليت أن لا أضع لبنة على لبنة ولا آجرة على آجرة . اسمع يا من أفنى في عمارة الدنيا عمره ، وقلل نفعه فيها وكثر ضرره كان السلف يخربون الدنيا فيعمرون بها الآخرة ، وأنتم قد عكستم ، عمرتم الدنيا وأخربتم الآخرة :

زيادة المرء في دنياه نقصان      وفعله غير فعل الخير خسران  
يا عامراً لخراب الدار مجتهداً      تالله ما لخراب العمر عمران

فيا مستأنساً بالمنازل والدور ، وكاسات الموت عليه تدور ، يا مظلم القلب وما للقلب نور ، الباطن خراب والظاهر معمور . لو ذكرت الأجداث والقبور ، لأبطلت عمارة الدنيا أيها المغرور ، ستحاسب على الأيام والشهور ، يا من يصلي بلا حضور ، ويصوم والصوم بالغية مغمور كم يتلطف بك وأنت نفور ، كم ينعم عليك يا كفور ، كم تبارز بالمعاصي وأنت مستور ويمهلك لتوب إليه إنه رحيم غفور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور :

إلى متى تلهو بدار الغرور      وفي تمادي الغي تفني الدهور  
ناسياً للموت يا غافلاً      عليه كاسات المنايا تدور  
حادي السرى ناداك مستعجلاً      وما تزودت ليوم النشور  
فانهض وتب من كل ذنب مضى      تحظى برضوان العزيز الغفور

[ وعن الأوزاعي رحمه الله عليه ] قال : كان عمر بن عبد العزيز يصوم ويفطر على البقل وكان في غالب أوقاته يغمس الخبز بالدقة ويأكله . وأهدي إليه طبق فيه تفاح وفاكهة فردّه ولم يأكل منه شيئاً ، فقيل له : ألم يكن رسول الله يقبل الهدية ؟ قال : بلى ولكن الهدية إلى رسول الله ﷺ هدية وهي لنا ولمن بعدنا رشوة ، وكان رحمه الله يمنع نفسه الشهوات ويسمح بالعطايا

للناس ، قال خزيمه أبو محمد العابد : إن عمر بن عبد العزيز قال : ما أعطيت أحداً مالاً واستقلت له ، وإني لأستحي من الله أن أسأله الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا . وعن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب رحمه الله تعالى قال : ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة سنتين ونصفاً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم . فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون من الفقراء فيقوم وماله معه لما أغني عمر الناس بعطائه ، وعن النضر بن سهل عن أبيه قال : قال عمر بن عبد العزيز لجاريته يوماً : روّحيني حتى أنام فروحته فنام فغلبها النوم فنامت فلما انتبه أخذ المروحة يروّحها فلما انتبهت ورأته يروّحها صاحت فقال لها عمر : إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحر ما أصابني فأحببت أن أروّحك كما روّحتني . فله درهم جعلوا التواضع لهم شعاراً . والتقوى دثاراً وجانبوا من الدنيا لهواً واغتراراً وتزيت لهم فرفضوها لما رأوها ثوباً معاراً كم كفت كفاً . وكما أعمت أبصاراً ، وكما بالخوف راعت راعيها وما راعته ليلاً ولا نهاراً ، فارحل بعزمك عنها واتخذ غيرها داراً ، واحذر لباس بأسها فكم كست لابسها عاراً :

|                             |                            |                          |
|-----------------------------|----------------------------|--------------------------|
| ياحِب الدنيا الغرور اغترارا | راكباً في طلابها الأخطارا  | يتغني وصلها فتأى عليه    |
| وترى أنسه فتبدي نفارا       | خاب من يتغني الوصول إليها  | جارة لم تزل تسيء الجارا  |
| كم محب أرتة أنساً فلما      | طلب الوصول أبعدته مرارا    | فتعوّض عنها بخلة صدق     |
| والتمس غير هذه الدار دارا   | فالبدار البدار بالعمل الصا | لح ما دمت تستطيع البدارا |

[ وعن هلال بن قيس رحمه الله ] قال : مرض عمر بن عبد العزيز مرضه الذي مات فيه أول شهر رجب سنة إحدى ومائة وكانت شكواه عشرين يوماً . وعن الوليد بن هشام رحمه الله قال : لقيني يهودي وكان قد أخبرني قبل ولاية عمر أن عمر سيلي هذا الأمر ويعدل فيه ، قال : فلقيت عمر فأخبرته فلما تولى عمر لقيني اليهودي بعد مدة ، فقال لي : ألم أخبرك أن عمر سيلي الخلافة وكان الأمر كما أخبرتك ؟ فقلت : بلى ، فقال لي : الآن هذا الرجل قد سقي السم فمره فليتناو ويدرك نفسه قال : فلقيته فذكرت له ذلك فقال عمر : والله إني عرفت الساعة التي سقيت فيها السم ولو كان شفائي في مس شحمة أذني لما مسستها أو لو كانت عافية بطيب أرفعه إليّ ما رفعته . وعن مجاهد قال : سألتني عمر بن عبد العزيز في مرضه : ما تقول الناس فيّ ؟ قال : يقولون إنه مسحور فقال : ما أنا بمسحور ولكن سقيت السم ثم استدعى بغيلاً فقال : ما حملك على أن سقيتني السم ؟ قال " أعطيت ألف دينار ووعدت بالعق فقال : هات الألف دينار فجاء بها فألقاها في بيت مال المسلمين وقال للغلام : اذهب حيث شئت فأنت حر ؟ وعن أبي حازم رحمه الله عليه قال : شاهدت عمر بن عبد العزيز وقد رقد رقدة على أثر وجد وجده فبكى ثم ضحك فلما انتبه قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين ما الذي اعتراك في

منامك حتى ضحكت بعد البكاء ؟ قال : رأيت ذلك ؟ قلت : نعم وجميع من حولك قال : رأيت كأن القيامة قد قامت وقد حشر الناس مائة و عشرين صفاً أمة محمد ﷺ منهم ثمانون صفاً وإذا مناد ينادي : أين عبد الله ابن أبي قحافة فأجاب فأخذته الملائكة فأوقفوه أمام ربه عز وجل فحوسب حساباً يسيراً ثم نجا وأمر به إلى ذات اليمين . ثم جيء بعمر بن الخطاب فحوسب حساباً يسيراً ثم أمر به وبصاحبه إلى الجنة . ثم جيء بعثمان فحوسب حساباً يسيراً ثم أمر به إلى الجنة . ثم نودي بعلي بن أبي طالب فجيء به فحوسب حساباً يسيراً ثم أمر به إلى الجنة . قال عمر بن عبد العزيز : فلما قرب مني نودي : أين عمر بن عبد العزيز ؟ قال : فتصيبت عرقاً ثم أخذتني الملائكة فأوقفوني أمام الحق سبحانه وتعالى فسألني عن النقيير والقطمير وعن كل قضية قضيتها ثم غفر لي فأمر بي ذات اليمين فمررت بحيفة ملقاة فقلت للملائكة : ما هذه الحيفة فقالوا : سله يجبك فسألته ووكزته برجلي فرفع رأسه وفتح عينيه فقلت له : من أنت ؟ فقال لي : من أنت ؟ فقلت : أنا عمر بن عبد العزيز فقال لي : ما فعل الله بك ؟ فقلت : تفضل عليّ ورحمني وفعل بي كما فعل بمن سلف من الأئمة ، فقال : ليهنك ما صرت إليه فقلت له : من أنت ؟ فقال : أنا الحجاج بن يوسف الثقفي قدمت على الله عز وجل فوجدته شديد العقاب والغضب فقتلني بكل قتيل قتلته وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة وها أنا بين يدي ربي أنتظر ما ينتظره الموحدون من ربهم : إما إلى الجنة وإما إلى النار . قال أبو حازم : فعاهدت الله تعالى بعدما سمعت هذا من عمر ﷺ أني لا أقطع لأحد بالنار ممن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فالويل لأهل الظلم من الأوزار ، ذكرهم بالقبائح قد ملأ الأقطار يكفيهم أنهم قد وسموا بالأشرار ذهبت لذاتهم بما ظلموا وبقي العار داروا إلى دار العقاب وملك غيرهم الدار وخلوا بالعذاب في بطون تلك اللحود والأحجار فلا راحة لهم ولا سكون ولا قرار ، دموعهم تجري على التفريط كالأنهار ، شيدوا بنيان الأمل فإذا به قد انهار ، كم قتل الحجاج من قتيل وكم ظلم من جار ، أما علم أن الله يتقمم ممن تعدى وجار ؟ فإذا قاموا في القيامة حشروا في جهنم مع الفجار ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَعَشَّىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴾ : [ إبراهيم : ٥٠ ] .

ويحك يا نفس البدار البدار ما هذه الدنيا لحي بدار منزلة والناس سفروكم  
خانهمو صرف الليالي وجار قد نفذ العمر وقل البقا إلى متى يا نفس ذا الاغترار

من كان في الدنيا يرى راحلاً كيف له فيها يقر القرار  
أم كيف يهنأ العيش فيها لمن عليه كاسات المنايا تدار  
يا أيها النائم قم وانتبه قد فاتك المطلوب والركب سار  
إن كنت أذنبت فقم واعتذر إلى كريم يقبل الاعتذار

وانهض إلى مولى عظيم الرجا يغفر في الليل ذنوب النهار  
 [ قيل ] : إن مسلمة بن عبد الملك دخل على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه ،  
 فقال له : يا أمير المؤمنين من توصي بأهلك ؟ فقال : إذا نسيت الله فذكروني ، ثم عاد وقال له :  
 من توصي بأهلك ؟ فقال : إن وليي فيهم الله وهو يتولى الصالحين . وعن رجاء بن حيوة قال :  
 قال لي عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه يا رجاء : كن أنت فيمن يغسلني ويكفني  
 ويلحدني في قبري فإذا وضعوني في لحدي فحل العقدة وانظر إلى وجهي فإنني قد دفنت ثلاثة من  
 الخلفاء كلهم إذا وضعته في لحده حللت العقدة . ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو مسودّ محول إلى  
 غير القبلة . قال رجاء : فلما مات عمر بن عبد العزيز ؓ كنت ممن غسله وكفنه ودفنه فلما  
 ألحدته حللت العقدة ونظرت إلى وجهه فإذا هو يضيء كالقمر المنير متوجهاً إلى القبلة ففرحت  
 له بذلك . وعن عبيدة بن حسان ، قال : لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال : اخرجوا عني  
 فلا يبقينّ عندي أحد وكان عنده مسلمة بن عبد الملك فخرجوا وقعد مسلمة بن عبد الملك  
 وفاطمة أخته زوجة عمر على الباب فسمعوه يقول : مرحباً بهذه الوجوه ليست بوجوه انس  
 ولا بوجوه جن ، قال : وسمعنا صوتاً من ناحية البيت يقول : ﴿ تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا  
 يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ : [ القصص : ٨٣ ] قال : ثم دخلوا عليه ،  
 وقد مات رحمه الله ، وقد استقبل القبلة وغمض عينيه وطبق فاه . وعن الأوزاعي قال : قال  
 عمر بن عبد العزيز : ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت فإنه آخر ما يكفر به عن المؤمن .  
 وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ثقل مرضه قال لمسلمة بن عبد الملك : خذ من مالي دينارين  
 فاشتر لي بهما كفنًا فقال : يا أمير المؤمنين إن الدينارين لا يحصل بهما كفن لمثلك ، فقال : يا  
 مسلمة إن كان الله عني راضياً فسيبدلني بما هو خير منه ، وإن كان ساخطاً فإنما يكون حطباً  
 للنار . وروي أنه كفن في ثياب سحولية ، وقيل : في يمنية ، وكان قبره بدير سمعان من أرض  
 حمص ، وكان قد أرسل إلى صاحب الأرض يسأله على موضع قبره ، فقال له : يا أمير  
 المؤمنين والله إنني لأتبرك بقبرك ، وقد حاللتك منه فأبى أن يقبله إلا بثمنه ، وفي رواية : أنه  
 بايعهم يعني أصحاب الأرض على موضع قبره بدينارين . وقال لهم : إنما أريد بطن الأرض  
 فإذا دفنت فاحرثوا أرضكم وازرعوا فيها وابنوا وانتفعوا بها فلا يضرني ذلك . وروي أن ولاية  
 عمر كانت ثلاثين شهراً إلا عشرة أيام . وتوفي وهو ابن خمس وأربعين سنة . وعن خالد  
 الربيعي قال مكتوب في التوراة : إن السماء والأرض لتبكي على عمر بن عبد العزيز أربعين  
 صباحاً . [ وروي ] أن رسول عمر بن عبد العزيز كان إذا وصل البصرة تلقاه الناس بالرحب

والسعة فإنه كان لا يأتي إلا بزيادة عطاء وإنفاذ مال يتفقد به أحوال الفقراء ، فلما وصل الرسول بموته خرج الناس إليه على جري عاداتهم فلما أخبرهم بموته ضج الناس بالبكاء والعيول وغم ذلك أهل البصرة بأسرهم لعظم مصيبتهم به [ وقيل ] : إن بعض الجن رثاه فقال :

عنا جزاك مليك الناس صالحة      في جنة الخلد والفردوس يا عمر  
أنت الذي لا نرى عدلاً نسرب به      من بعده ما جرى شمس ولا قمر

ولما مات عمر بن عبد العزيز رثاه جرير فقال :

تنعي النعاة أمير المؤمنين لنا      مفضلاً حج بيت الله واعتمرا  
حملت أمراً عظيماً فاستطعت له      وسرت فيه بأمر الله مؤتمرا

[ وقال مسلمة بن عبد الملك ] : رأيت عمر بن عبد العزيز بعد موته في المنام ، فقلت له إلى أي الحالات صرت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يا مسلمة هذا أوان فراغي والله ما استرحت إلى الآن فقلت : يا أمير المؤمنين فأين أنت . فقال : أنا مع أئمة الهدى في جنات عدن وكان عمر ابن عبد العزيز يأتي المساجد المهجورة في الليل فيصلّي فيها ما يسر الله عزّ وجل فإذا كان وقت السحر وضع جبهته على الأرض ومرّغ خدّه على التراب ولم يزل يبكي إلى طلوع الفجر ، فلما كان في بعض الليالي فعل ذلك على العادة ، فلما فرغ ورفع رأسه من صلاته وتضرّعه وجد رقعة خضراء قد اتصل نورها بالسماء مكتوب فيها هذه براءة من النار من الملك العزيز لعبده عمر بن عبد العزيز . وقال الفرزدق لما مات عمر رضي الله عنه يرثيه :

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقع      لعدله لم يصبك الموت يا عمر  
كم من شريعة حق قد بعثت لها      كادت تموت وأخرى منك تنتظر  
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي      على الحبيب الذي يسقى به المطر  
ثلاثة ما رأت عيني لهم شبة      تضم أعظمهم في المسجد الحفر  
وأنت تتبعهم إذ كنت مجتهداً      للحق والأمر بالمعروف تبتدر  
لو كنت أملك والأقدار غالبية      تأتي رواحاً وتباناً وتبتكر  
صرفت عن عمر المرضي مصرعه      بدير سمعان لكن يغلب القدر  
فالله يكرم مثواه ويرحمه      ما أوجب الحج بل ما سنت العمر  
وفي مصاب رسول الله تسلية      فيمن يموت وفي أبنائه عبر  
هو الرسول الذي منّ الإله به      على البرية وازدادت به السير  
وخير من ولدت عدنان قاطبة      وخير من شرفت من أجله مضر  
المصطفى المرتضى للخلق ينقذهم      من الضلال الذي في طيه الخطر

أعطاه مولاه ما لم يعطه أحداً      خزائن الغيب منها الخير ينتظر  
هو الحبيب الذي أسرى به عجلاً      إلى السماء وجنح الليل معتكر  
صلى عليه إله العرش ما طلعت      شمس وما خلفتها الأنجم الزهر  
اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وصلى الله على سيدنا محمد  
وعلى آله وصحبه وسلم .

## الجلس الثامن والثلاثون

### في مناقب الإمام الشافعي ؒ

الحمد لله الذي رفع العلماء إلى أشرف المناصب وأعلى وأسمى ، وخفض لهم المناصب حين  
نصبتهم لفهم أسرار صفات ذاته والأسماء ، وعطفهم على حال المعرفة ونظم درّ عقولهم في  
سلك التمييز بالتأكيد نظاماً ، نشر في الأقاليم أعلامهم وأجرى بالحكم أعلامهم فكل بمذهبه  
يرقم سطر الطروس رقماً ، فنعمان النعمة ملكهم علماً وفهماً ، وفاضلهم مالاً وطأ لهم  
الحديث ورسم نصيبه الأحكام رسماً ، وشافعي سائلهم وفر لهم من العلم نصيباً وقسماً ،  
وأحدهم لسيدهم مسنداً إليه فلا يخشى لديه همّاً ، وكلهم طامع من المولى ببلوغ سؤله متأدب بما  
قال تعالى في تنزيله لرسوله : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ : [ طه : ١١٤ ] .

إذا ما شئت أن تسمو وتسمى      وتدرّك راحة روحاً وجسماً  
فقم لطريق أهل العلم سعياً      لتقفو معهم أثراً ورسماً  
فإن حصلت لك الدنيا وإلا      ظفرت بأكبر الشرفين قسماً  
فأكرم ما حواه المرء علم      به يُهدى ويهدي من ألماً  
وليس يفيد ملك الكون عبداً      إلى العلياء يسري وهو أعمى  
فكم أبدى ضياء العمر رشداً      وأذهب ظلمة وأزال ظلماً  
فنحمد ربنا إذ منّ لطفاً      به في رشدنا وأزال غماً

أحمد حمداً أنال به من الإخلاص حظاً وقسماً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له  
شهادة أمحو بها ذنباً وإثماً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أذهب الله بشريعته عن القلوب  
هماً ۞ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الذين أطلع الله لهم في سماء الفضل والشرف نجماً .  
قال أصحاب التاريخ : ولد الإمام الشافعي ؒ بغزة من بلاد فلسطين ومات عنه أبوه وهو ابن

سنتين ، فحملته أمه إلى مكة شرفها الله تعالى ، فنشأ وترعرع بها وجالس أهل العلم وفتح الله عليه من العلم ما لم يفتح على غيره حتى كان مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة يحثه على الفتوى وهو ابن خمس عشرة سنة . وهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، ويتصل نسبه إلى عبد مناف ، وعنده يلتقي بالنبي ﷺ ، وسافر إلى بغداد فأقام بها سنتين ، ثم عاد إلى مكة فأقام بها شهراً ، ثم خرج إلى مصر ومات بها ﷺ ، وكان يقسم الليل إلى ثلاثة أقسام : ثلث للعلم وثلث للصلاة وثلث للنوم . وقال الربيع رحمه الله : كان الإمام الشافعي رحمه الله عليه يختم القرآن في كل يوم مرة ، وقال الربيع أيضاً : كان الشافعي يختم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وقال الحسن الكرايسي : بت مع الإمام الشافعي ﷺ غير مرة فرأيت يصلي نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة ، وكان لا يمر على آية رحمة إلا سأل الله تعالى الإنابة لنفسه وللمؤمنين ولا يمر بآية عذاب إلا تعود منها وسأل الله تعالى النجاة لنفسه وللمؤمنين ، وكان الشافعي ﷺ يقول : ما شبت منذ ستة عشر سنة لأنه يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة . وكان الشافعي ﷺ يقول : ما حلفت بالله في عمري لا كاذباً ولا صادقاً وسئل ﷺ عن مسألة فسكت ، فقيل له : لما لا تجيب ؟ فقال : حتى أعلم الفضل في سكوتي أو في جوابي . وقال المزني ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم : جاء الشافعي إلى مالك رضي الله عنهما ، فقال له : أريد أن أسمع منك الموطأ ، فقال مالك : امض إلى حبيب كاتبني فإنه يقول قرأته فقال له الشافعي : تسمع مني رضي الله عنك صفحاً ، فإن استحسنت قراءتي قرأته عليك وإلا تركتك ، فقال له : اقرأ فقرأ صفحاً ثم وقف ، فقال له مالك : هيه فقرأ صفحاً ثم سكت ، فقال له الإمام هيه فقرأه فاستحسن مالك قراءته فقرأ عليه الموطأ أجمع ثم أتاه بعد ذلك ، فقال له مالك : اطلب من يقرأ لك ، فقال له الشافعي : أحب أن تسمع قراءتي فإن خفت عليك وإلا طلبت من يقرأ لي ، فقال : اقرأ فقرأت عليه فأعجبه ذلك ، ثم قال : اقرأ فقرأت عليه من الموطأ من أوله إلى آخره حفظاً فدعاني وسرّ بذلك . قال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول : حملت على محمد بن الحسن حمل جل بختي ليس عليه إلا سماعي منه . وقال محمد بن عبد الله بن الحكم : قال الشافعي : لم يكن لي مال وكنت أطلب العلم في الصغر فكنت أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور فأكتب فيها .

[إخواني] بهذا الاجتهاد بلغوا المراد ، وبهذا الطلب حصل لهم التوفيق والسداد ، وبهذه الهمة صاروا قدوة للعباد ، يا هذا الهمم العلية تدني إلى المراتب السنية ، وكل من تعب استراح ويحك يا مضيعاً عمره في البطالة ، وقد فاز غيره بنجح الطالب ، يا مهملاً نظره في العواقب ،

احذر فوات الفضائل والمناقب ، أما كان فيما مضى من عمرك من اللعب ما كفاك ، ولا فيما رأيت من تغيير أحوالك ما وعظك ونهاك ؟ ذهب العمر في كسب ما يضر ، وأتيت إلى الآخرة بما لا يسر :

ما زلت في ضر تكابده حتى قطعت العمر خسرا  
لا كان ما قد كان لا كانا وركبت أثاماً أسرت بها  
وأتيت بالأوزار تحملها ورأيت في عقبك أحزانا

فعسى الكريم يتم نعمته ويعيد ذاك السوء إحسانا  
وكان الشافعي رحمه الله يقول : من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب . وأما زهده رحمه الله في الدنيا وسخاؤه فروى الحميدي أن الشافعي رحمه الله خرج إلى اليمن في بعض أشغاله ثم انصرف إلى مكة ومعه عشرة آلاف درهم فضرب خيمته خارج مكة فكان الناس يأتونه فما برح من مكانه حتى فرقها جميعها ، وخرج يوماً من الحمام وقد أتى بمال كثير فدفعه للحمامي ، وسقط سوطه من يده وهو راكب فرفعه إليه إنسان فأعطاه خمسين ديناراً .  
وروي عنه أنه خاط قميصاً عند بعض الخياطين ممن جهل قدره فهزأ به الخياط وجعل له الكم اليمين ضيقاً لا تخرج منه يده إلا بجهد والكم الآخر كأنه رأس عدل ، فلما جاء الشافعي رأى كما ضيقاً جداً والآخر متسعاً جداً . فقال : جزاك الله خيراً هذا الكم الضيق جيد لتشمير الوضوء وهذا الكم الواسع لأجل الكتاب ، وكان رسول الملك قد جاء إلى الشافعي بعشرة آلاف درهم فصادفه عند الخياط فقال له : ادفعها إليه حق خياطته هذا الثوب وفكرته في تفصيله ، فسأل عنه الخياط ف قيل له : هذا الإمام الشافعي فتبعه وقبل أقدامه واعتذر إليه ثم خدمه وصار من أصحابه ، وقال الربيع : تزوجت فسألني الشافعي كم أصدقته ؟ فقلت : ثلاثين ديناراً ؟ قال : كم أعطيتها ؟ قلت : ستة دنائير ، فأرسل إليّ بصرة فيها أربعة وعشرون ديناراً ، وجعل لي معلوماً على الأذان بالجامع سنة إحدى ومائتين . وقال الشافعي رحمه الله : أظلم الظالمين لنفسه الذي إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل ، وقرأ بعضهم عنده يوماً قوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [٢٥] وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْنَذُونَ ﴿ : [ المرسلات : ٣٥ - ٣٦ ] فتغير لونه واقشعر جلده واضطربت مفاصله وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين : اللهم لك خضعت قلوب العارفين ، وذلت لهيبك نفوس المشتاقين ، إلهي هب لي جودك وجللني بسترِكَ واعف عني في تقصيري بكرمك . يا هذا إذا كان هذا خوف الشافعي مع علمه فكيف أمنك مع جهلك ؟ ويح الجاهلين الغافلين ، أعمارهم تنهب وأيامهم تذهب وأثامهم تكتب ، أصم عن النصائح أم عمي والأمر واضح ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ : [ النساء : ٨٧ ] أهل القلوب

القاسية يخرجون من مجالس الذكر كما دخلوا ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس : ١٠] [المواعظ تحوم حول القلوب ولا تجد طريقاً إليها ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةً ﴾ : [البقرة : ٧] ومع هذا فلا يقطع الرجاء فإن الخمر ينقلب خلا في ليلة واحدة ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ : [النور : ٤٤] خرج عمر بن الخطاب ؓ قبل الإسلام وهو أقسى قلباً من الصفا ، فأسلم ولان عند الصفا :

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر ويحك إن اغتالك الظلام فاقتد بعلماء الإسلام . قال عبد الله بن محمد البكري : كنت مع الإمام الشافعي ؓ بشط بغداد فرأى شاباً يتوضأ ولا يحسن الوضوء ، فقال له : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة ثم مضى ، فأسرع الشاب في وضوئه ثم لحق الإمام الشافعي ولم يعرفه فالتفت إليه الإمام وقال له هل من حاجة ؟ قال : نعم تعلمني مما علمك الله ، فقال له : أعلم أن من عرف الله نجاً ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قرت عينه بما يرى من ثواب الله غداً ، أفلا أزيدك ؟ قال : نعم ، قال : من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان من أمر بالمعروف واثم به ، ونهى عن المنكر وانتهى عنه ، وحافظ على حدود الله تعالى . قال : أفلا أزيدك ؟ قال : بلى قال : كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنجح مع الناجحين ثم مضى ، فسأل عنه الشاب بعد ذلك فقليل له : هذا الإمام الشافعي ؓ ، وكان يقول ؓ : وددت أن الناس ينتفعون بهذا العلم ولم ينسب إليّ منه شيء ، وقال أيضاً ؓ : ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله عز وجل ، وما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يظهر الحق على يديه ولا أبالي أن يبين الله عز وجل الحق على لساني أو على لسانه . وقال أيضاً : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت مودته ولا كابرتي أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته ، وقال أحمد بن حنبل ؓ : ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي . وقال له ابنه : يا أبت أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال الإمام أحمد : يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس ، فانظر يا بني هل من هذين خلف ؟ هكذا العلماء الصالحون هم كالشمس للدنيا والعافية للناس ، وليس منهما خلف ، فإن بهم يدفع الله البلاء وينزل الرخاء وتعم البركة وتنشر الرحمة ، فله درهم فروا من الدنيا إلى الله وأنتم تفرون من الله إلى الدنيا . كان السلف يسخرون من الشيطان وأنتم يسخر بكم ، كم بينكم وبينهم في المقدار ، ملكتكم الدنيا

وملكوها فأنتم عبيد لها والقوم أحرار ، كانت لهم أنفة فما احتملوا العار وعرفوا قدر الزمان فأنتهبوا الأعمار ، لو اطلعتم عليهم في وقت الأسحار لرأيتموهم نجوم الهدى ، لا بل هم الأقمار ، قاموا في الدجى على قدم الاعتذار ، وأنتم في بحر النوم والغفلة في التيار :

طال والله بالذنوب اشتغالي وتماديت في قبيح الفعّال  
ليت شعري إذا أتيت فريداً والموازن قد نصبن حوالي  
والدواوين قد نشرن جميعاً ثم لم يغنني هنالك مالي  
ما احتيالي وما أقول لربي في سؤالي وما يكون مقالي

[كان] الشافعي ؒ كثير الزهد في الدنيا عفيفاً عن اللغو والكلام الفاحش . ومراً يوماً برجل يسفه على رجل من أهل العلم فالتفت الشافعي ؒ إليه ، فقال : نزهوا أسماعكم عن سماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به فإن المستمع شريك القاتل ، وإن السفیه لينظر إلى أخبث شيء في وعائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفیه لشقي رادّها كما يشقى قائلها . وروي أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلاً صالحاً ورعاً وكان يسأل الشافعي عن مسائل في الورع والشافعي يقبل عليه لورعه ، فقال للشافعي : أيما أفضل : الصبر أو المحنة أو التمكن ؟ فقال الشافعي ؒ : التمكن درجة الأنبياء ولا يكون التمكن إلا بعد المحنة فإذا امتحن وصبر مكن ، ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى امتحن إبراهيم ؑ ثم مكنه وامتحن موسى ؑ ثم مكنه وامتحن أيوب ؑ ثم مكنه وامتحن سليمان ؑ ثم آتاه ملكاً عظيماً ، والتمكن أفضل الدرجات .

[وقال عبد الملك بن عبد الحميد الميموني ] : كنت عند أحمد بن حنبل وجرى ذكر الشافعي فرأيت أحمد يعظمه ، فقال : بلغني أو قال : يروى عن النبي ﷺ : « أن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها » فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى .

[وقال هرون بن سعيد بن الهيثم الأيلي ] : ما رأيت مثل الشافعي قط ، ولقد قدم علينا مصر فقالوا : قدم رجل من قريش فقيه فجنّاه وهو يصلي فما رأينا أحسن منه وجهاً ولا أحسن صلاة فافتننا ، فلما قضى صلاته تكلم فما رأينا أحسن منطقاً منه ، وكان يتكلم في الحقيقة أيضاً وفي الزهد وفي أسرار القلوب ، وكان يقول : كيف يزهد في الدنيا من لا يعرف قدر الآخرة ؟ وكيف يخلص من الدنيا من لا يخلو من الطمع الكاذب ؟ وكيف يسلم من لا يسلم الناس من لسانه ويده ؟ وكيف ينال الحكمة من لا يريد بقوله وجه الله عز وجل ؟ وسأله بعض الناس عن الرياء ، فقال له : أنت إذا خفت على نفسك العجب فانظر رضا من تطلب ،

وفي أي نعيم ترغب ، ومن أي عقاب ترهب ، وأي عافية تشكر ، وأي بلاء تذكر ؟ وله ﷺ :

|                              |                               |
|------------------------------|-------------------------------|
| ولما قسا قلبي وضائق مذاهبي   | جعلت الرضا مني لعفوك سلما     |
| تعاطمني ذنبي فلما قرنته      | بعفوك ربي كان عفوك أعظما      |
| فلله در العارف الندب إنه     | تسح لفرط الوجد أجفانه دما     |
| يقيم إذا ما الليل مد ظلامه   | على نفسه من شدة الخوف مأتما   |
| فصيحاً إذا ما كان في ذكر ربه | وفيما سواه في الورى كان معجما |
| ويذكر أياماً مضت من شبابه    | وما كان فيها بالجهالة أحرما   |
| فصار قرين الهم طول نهاره     | ويخدم مولاه إذا الليل أظلما   |
| يقول حبيبي أنت سؤلي وبغيتي   | كفى بك للراحلين سؤلا ومغنا    |
| ألست الذي غذيتني وكفلتني     | وما زلت منانا عليّ ومنعما     |
| عسى من له الإحسان يغفر زلتي  | ويستر أوزاري وما قد تقدما     |

وله أيضاً ﷺ نظم كثير يحتوي على الحكمة والمواعظ ، وسنذكر منها ما وصل إلينا وصح عنه ﷺ ، وله أيضاً كلام في الحقيقة ومعان دقيقة . فمن ذلك ما رواه سويد بن سعيد رحمه الله ، قال : كان الشافعي جالساً بعد صلاة الصبح في مدينة النبي ﷺ إذا دخل عليه رجل ، فقال له : إني خائف من ذنوبي أن أقدم على ربي وليس لي عمل غير التوحيد ، فقال الإمام الشافعي ﷺ : يا مؤمن لو أراد الله عز وجل أن يؤسك من المساحة لديه لما أحالك في مغفرة الذنوب عليه ، حيث يقول : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ : [ آل عمران : ١٣٥ ] . ولو أراد عقوبتك في جهنم وتخليدك لما ألهمك معرفتك به وتوحيده ، ثم أنشد :

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| إن كنت تغدو في الذنوب جليداً | وتخالف في يوم المعاد وعيدا |
| فلقد أتاك من المهيمن عفوه    | وأتاح من نعم عليك مزيدا    |
| لا تيأسن من لطف ربك في الحشا | في بطن أمك مضغة ووليدا     |
| لو شاء أن تصلى جهنم خالداً   | ما كان ألهم قلبك التوحيداً |

فبكى الرجل وأقبل على العبادة وفرح بكلامه ﷺ ، وله شعر كثير وأدعية ، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مروان ، قال : كنت أجلس في حلقة العلم عند الإمام الشافعي ﷺ وأكتب ما أفهمه منه فأتيته سحراً فوجدته في المسجد وهو قائم يصلي فجلست حتى فرغ من صلاته ثم دعا بدعوات حفظتها منه فكان من جملة ذلك : اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة وهب لنا تصحيح المعاملة فيما بيننا وبينك على السنة وارزقنا صدق التوكل عليك وحسن الظن بك وامنن علينا بكل ما يقربنا إليك مقروناً بعوافي الدارين برحمتك يا أرحم الراحمين . قال : فلما

فرغ من دعائه خرج من المسجد وخرجت خلفه فوقف ينظر إلى السماء ثم أنشد :

بموقف ذلي دُونَ عزتك العظمى      بمخفي سر لا أحيط به علما  
بإطراق رأسي باعترافي بذلتي      بمد يدي أستمطر الجود والرحما  
بأسمائك الحسنى التي بعض وصفها      لعزتها يستغرق النثر والنظما  
بعهد قديم من ألتست بربكم      بمن كان مجهولاً فعلمته الأسماء  
أدقنا شراب الأنس يا من إذا سقى      محباً شرباً لا يضام ولا يظما

[ومن جملة مناقبه ؒ] قال الربيع رحمه الله : سمعت الشافعي ؒ يقول : رأيت وأنا باليمن كأني جالس في قضاء الطواف إذ أقبل علي بن أبي طالب ؒ فقامت إليه مسرعاً وسلمت عليه فصافحته فعانقني ونزع خاتمه من أصبعه فجعله في أصبعي ، فلما أصبحت قصصت ذلك على المعبر ، فقال لي : أبشر يا أبا عبد الله ؛ أما رؤيتك لعلي بن أبي طالب في المسجد الحرام فهو النجاة من النار ، وأما مصافحتك إياه فهو الأمان يوم الحساب ، وأما جعله الخاتم في أصبعك فسيلغ اسمك في الدنيا ما بلغ اسم علي بن أبي طالب ؒ . ومن جملة دعائه ؒ : اللهم إني أعوذ بنور قدسك ، وعظمة طهارتك ، وبركة جلالك من كل آفة وعاهة وطارق من الإنس والجن إلا طارقاً يطرق بخير . اللهم أنت عياذي فبك أعوذ وأنت ملاذي فبك ألوذ ، يا من ذلت له رقاب الجبابرة ، وخضعت له أعناق الفراعنة ، أعوذ بجلالك وكرمك ، من خزيك وكشف سترك ، ونسيان ذكرك والانصراف عن شكرك أنا في كنفك ليلي ونهاري ونومي وقراري وظعني وأسفاري ، ذكرك شعاري وثناؤك دثاري ، لا إله إلا أنت تنزيهاً لاسمك ، وتكريماً لسبحات وجهك ، أجري من خزيك ، ومن شر عبادك وقني سيئات مكرك ، واضرب عليّ سرادقات حفظك ، وأدخلني في حفظ عنايتك ، يا أرحم الراحمين .

[لأخواني] ذهب الصالحون والعلماء والمجتهدون ولم تذهب آثارهم ، ومحيت رسومهم ولم تمح محاسنهم وأخبارهم . كان الإمام أحمد بن حنبل يعظم الإمام الشافعي ؒ ويذكره كثيراً ويشني عليه ، وكانت له ابنة صالحة تقوم الليل وتصوم النهار ، وتحب أخبار الصالحين الأخيار ، وتود أن ترى الشافعي لتعظيم أبيها له فاتفق مبيت الإمام الشافعي عند أحمد رضي الله عنهما في وقت ففرحت البنت بذلك طمعاً أن ترى أفعاله وتسمع مقالته ، فلما كان الليل قام الإمام أحمد إلى وظيفة صلاته وذكره والإمام الشافعي ؒ مستلق على ظهره والبنت ترقبه إلى الفجر فقالت لأبيها : رأيتك أنت تعظم الشافعي وما رأيت له في هذه الليلة لا صلاة ولا ذكراً ولا ورداً ، فبينما هم في الحديث إذ قام الشافعي فقال له أحمد : كيف كانت ليلتك ؟ فقال : ما رأيت ليلة أطيب منها ولا أبرك ولا أريح . فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأني رتبت في هذه الليلة مائة

مسألة وأنا مستلق على ظهري كلها في منافع المسلمين ثم ودّعه ومضى ، فقال أحمد بن حنبل لابنته هذا الذي عمله الليلة وهو نائم أفضل مما عملته وأنا قائم . يا هذا كانت حركاتهم وسكناتهم لله ، وأفعالهم وأقوالهم لله ، وذكرهم وفكرهم في الله ، فقيامهم طاعة ، ونومهم صدقة وذكرهم تسبيح ، وسكوتهم فكر ، وعلمهم شفاء ورحمة للأمة ، لا جرّم أن الله تعالى منحهم ومدحهم وجعلهم أئمة الإسلام وقدوة للأنام ، وقيل في المعنى :

قوم إلى الله ساروا بالعلوم على      نجائب الفكر ركباناً ووحيدانا  
وفارقوا الأهل والأولاد واغتربوا      وقد جفوا في طلاب العلم أوطانا  
حتى انتهوا منتهى علم ومعرفة      وذكرهم عطر الأكوان إعلانا  
هم الأئمة لا زالت علومهم      تبدي لناشقها روحاً وريحانا

[ وقيل ] : إن الإمام الشافعي رحمه الله كان يقطع الليل بوظائف العلوم والأذكار ويجول في روض الحقائق والأسرار ، ويتتزه في حدائق لطائف الأفكار ، فإذا هبت عليه نسيمات الأسحار اضطرب كونه وتغير لونه وهاج وجهه ولحقه حال لا يدركه إلا أرباب الأحوال فسئل عن ذلك ، فقال : لو تنشقون في السحر ما أنشق لشغلتم عن دنياكم ولمهتكم لأخراكم ، ولسان حاله يقول :

لكم مهجتي والروح والجسم والقلب      وكلّي لكم ملكٌ وإني بكم صبّ  
وأنتم أحبائي على كل حالة      فيا فرحي إن صح لي فيكم الحب  
نأيتم فعيني دمعها متواصل      عليكم وقلبي لا يفارقه الكرب  
وكم أتمنى أن أسير إليكم      فيمنعني حظي وما تنفع الكتب  
وأشتاق وادي الرقمتين لأجلكم      وقلبي إلى وادي قبا والنقا يصبو  
متى أنظر الأعلام من نحو أرضكم      وقد ظهرت تلك المعالم والكتب  
ويطر بني نوح الحمام على الرى      وبان الحمى والأثل والمنزل الرحب  
متى تجمع الأيام شملي برامة      وأنظر من أهوى وقد زالت الحجب  
وإني لمشتاق إلى قبر أحمد      نبيّ إليه ترحل العجم والعرب  
هو القرشي الهاشمي الذي له      مناقب فضل لا تبيد ولا تحبو  
ولولاه كان الناس في الغي والعمى      ولكن هداه قد حباناً به الرب  
عليه سلام الله ما لاح بارق      وما هتفت ورق وما هطلت سحب  
وعمّ جميع الآل والصحب كلهم      سلام ففيهم دائماً وجب الحب

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

## المجلس التاسع والثلاثون

### في مناقب الإمام مالك عليه السلام

الحمد لله الذي جعل العلم للعلماء سبيلاً ، وأغناهم به وإن عدموا مالاً ونسباً ، ولأجله فاز إدريس عليه السلام بالجنة ورفع الله واجتيى ، ولطلبه قام الكليم ويوشع وانتصبا ، فسار إلى أن لقيا في سفرهما نصيباً . ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آتِبْرَحُ حَتَّى أَتَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ : [ الكهف : ٦٠ ] وبسببه خلق الله آدم للبشر أباً ، وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا له إلا إبليس أبى ، واستخرج من ذريته قبائل وشعباً ، وأجرى عليهم قلم القضاء وجعل لكل شيء سبيلاً ، وفق أهل العلم بعنائه فقاموا في خدمته رغباً ورهباً ، وفقهم وعرفهم أحكامه فأحرزوا به مزايا ورتباً ، وجعلهم في الدنيا كالأعلام وهداة للأنام فاكسبوا به مجدداً وأدباً ، وقذف في قلوبهم أنواراً يرون بها من المشكلات ما كان بعيداً محتجباً ، وكساهم به عزاً وجلالةً وسمتاً ومهابةً فغدا كل منهم مكرماً ومجتيى ، وأذاقهم حلاوة أحكامه فما وجدوا في سفر طلبه تعباً ، فإذا وفدوا إليه في القيامة ألبسهم تيجان الكرامة وناداهم أهلاً وسهلاً ومرحباً :

|                                  |                              |
|----------------------------------|------------------------------|
| تقدّم وقدم في الهوى النفس إن ترد | رضاهم إذا أحييت منهم تقربا   |
| ولا تخش من طعن القنا إن أردتهم   | ورمت تلاقيهم فلا تخف الظبا   |
| هم العلماء المخلصون لربهم        | فخذ واقتبس منهم وكن متادبا   |
| فإن كنت أعلاً حزت كل فضيلة       | ونلت مقاماً في الأنام ومنصبا |
| وساعدك الرحمن منه بفضله          | وصار لك الدين الحنيفي مذهباً |

أحمده حمداً أتخذه للنجاة سبيلاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أعتز بها طرباً . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المصطفى والرسول المجتيى ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته البررة النجبا ، صلاة وسلاماً دائماً ما هطلت السماء بوبلها وأبدت سحباً .

[ روى الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في كتاب الأنساب ] أن الإمام مالك بن أنس عامر الأصبحي عليه السلام : كان إمام دار الهجرة وفيها ظهر الحق وانتصر ، وقام الدين واشتهر ، ومنها فتحت البلاد ، وتواصلت الأمداد ، وسمي عالم المدينة وانتشر علمه في الأمصار واشتهر في سائر الأقطار ، وضربت له أكباد الإبل وارتحل الناس إليه من كل فج فانتصب لتدريس

العلم وهو ابن سبع عشرة سنة ، فاحتاج أشياخه إليه وعاش قريباً من تسعين سنة ، ومكث يفتي الناس ويعلمهم نحواً من سبعين سنة وشهد له التابعين بالفقه والحديث ، وروى عنه من الأئمة المشهورين والعلماء المذكورين محمد بن شهاب الزهري إمام السنة ، وربيعة بن عبد الرحمن فقيه أهل المدينة ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وموسى بن عقبة ، وهؤلاء كلهم أشياخه ورووا عنه ، وتأول فيه التابعون وتابعوهم أنه العالم الذي بشر به النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره وهو قوله ﷺ : « ينقطع العلم فلا يبقى عالم أعلم من عالم المدينة » ، وفي حديث آخر : « ليس على ظهر الدنيا أعلم منه ، فتضرب إليه أكباد الإبل » ، وفي حديث آخر : « يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » . قال ابن عسّية : كانوا يروونه مالكا . وقال عبد الرزاق : كنا نرى أن مالكا لا يعرف بهذا الاسم غيره ولا ضربت أكباد الإبل إلى أحد مثل ما ضربت إليه . قال أبو مصعب : كان الناس يزدهمون على باب مالك ويقتتلون عليه من الزحام لطلب العلم . وقال يحيى بن شعبة : دخلت المدينة سنة أربع وأربعين ومائة ومالك أسود الرأس واللحية والناس حوله سكوت لا يتكلم أحد منهم هيبة له ولا يفتي أحد في مسجد رسول الله ﷺ غيره فجلست بين يديه فسألته فحدثني فاستزدته فزادني ثم غمزني أصحابه فسكت . وقال مالك ﷺ : ما جلست للفتيا والحديث حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أي مستحق لذلك . وقال حماد بن زيد لرجل جاءه في مسألة اختلف الناس فيها : يا أخي إن أردت السلامة لدينك فسل عالم المدينة واصغ إلى قوله فإنه حجة : مالك بن أنس إمام الناس . وقال حماد بن سلمة : لو قيل لي اختر لأمة محمد ﷺ إماماً يأخذون عنه دينهم لرأيت مالكا لذلك موضعاً وأهلاً ورأيت ذلك صلاحاً للأمة . وقال الليث بن سعد : علم مالك علم تقي ، علم مالك أمان لمن أخذ به من الأنام ، وكان عبد الرحمن بن القاسم يقول : إنما أقتدي في ديني برجلين مالك وسليمان بن القاسم في ورعه فلله درهم نصبوا أنفسهم لنفع الناس فعبرت بأنفاسهم الأكوان واجتهدوا في طلب العلم فوفقهم الرحمن . قال رسول الله ﷺ : « ما سلك عبد طريقاً إلى العلم إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، ولعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولو أن عابداً مات في الإسلام ما نقص من الإسلام إلا شخصه ، ولو أن عالماً مات لفقده أمة من الناس ، وما نقص عالم من الأرض إلا ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها أحد ما اختلف الليل والنهار ، ألا وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، ولما جرت به أقلام العلماء أفضل عند الله من دم الشهداء وليودن رجال قتلوا في سبيل الله أن يبعثهم الله يوم القيامة علماء لما يرون من فضل أهل العلم ، فمن أصاب علماً فقد أصاب خيري الدنيا والآخرة ومن آذاهم فقد بارز الله تعالى بالمحاربة » :

عليك بعلم الفقه في الدين إنه سیرفع فاستدركه قبل صعوده  
فمن نال منه غاية بلغ المنى وصار مجدداً في بروج صعوده

[ وقال محمد بن رمح رحمه الله ] : حججت مع أبي وأنا صبي لم أبلغ الحلم فنمت في مسجد رسول الله ﷺ في الروضة بين القبر والمنبر فرأيت النبي ﷺ قد خرج من قبره وهو متوكىء على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقامت فسلمت عليه فرد عليّ السلام فقلت : يا رسول الله أين أنت ذاهب ؟ فقال : أقيم للملك الصراط المستقيم فانتبهت فأتيت أنا وأبي فوجدت الناس مجتمعين على مالك وقد أخرج الموطأ ، وكان أول خروجه .

[ وحدث محمد بن عبد الحكم ] قال : سمعت محمد بن أبي السري العسقلاني يقول : رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت : يا رسول الله حدثني بعلم أحدث به عنك . فقال ﷺ : إني قد أوصيت إلى مالك بكنز يفرقه عليكم ثم مضى فتبعته فقلت له : يا رسول الله صلى الله عليك حدثني بعلم أحدث به عنك فقال : إني أوصيت إلى مالك بكنز يفرقه عليكم ثم مضى فتبعته فقلت : يا رسول الله حدثني بعلم أحدث به عنك فقال ﷺ : يا بن السري إني قد أوصيت إلى ابن مالك بن أنس بكنز يفرقه عليكم ألا وهو الموطأ ، ألا وليس بعد كتاب الله ولا سنتي في إجماع المسلمين حديث أصح من الموطأ فاسمعه تنتفع به . وقال عتيق بن يعقوب الزبيري رحمه الله عليه : قدم هارون الرشيد المدينة وكان قد بلغه أن مالك بن أنس عنده الموطأ يقرؤه على الناس فوجه إليه البرمكي ، فقال : أقرئه السلام وقل له يحمل إلي الكتاب فيقرؤه عليّ ، فأتاه البرمكي فقال له : أقرئه السلام وقل له إن العلم يزار ولا يزور وإن العلم يؤتى ولا يأتي فأتاه البرمكي وأخبره . وكان عنده أبو يوسف القاضي فقال : يا أمير المؤمنين يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بن أنس في أمر فخالفك اعزم عليه فبينما هم كذلك إذ دخل مالك بن أنس فسلم وجلس ، فقال له الرشيد : يا بن أبي عامر أبعث إليك فتخالفني ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين أخبرني الزهري عن خارجة بن يزيد بن ثابت عن أبيه ، قال : « كنت أكتب الوحي بين يدي النبي ﷺ فكتبت : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ، وكان ابن أم مكتوم عند النبي ﷺ . فقال يا رسول الله إني رجل ضريب ، وقد أنزل الله تعالى في فضل الجهاد ما قد علمت ، فقال النبي ﷺ : لا أدري وقلمي رطب ما جف حتى ثقل فخذ النبي ﷺ عليّ ثم أغمي على النبي ﷺ ثم جلس رسول الله ﷺ فقال : يا زيد اكتب غير أولي الضرر » يا أمير المؤمنين حرف واحد تعب فيه جبريل والملائكة من مسيرة خمسة آلاف عام ألا ينبغي لي أن أعزه وأجله ؟ وأن الله تعالى رفعك وجعلك في هذا الموضع فلا تكن أنت أول من يضع عز العلم فيضع الله عزك . قال : فقام الرشيد فمشى مع مالك إلى منزله ليسمع منه

الموطأ وأجلسه معه على المنصة فلما أراد أن يقرأه على مالك قال لمالك : تقرأه عليّ ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما قرأته على أحد منذ زمان . قال الرشيد : فيخرج الناس حتى أقرأه أنا عليك . فقال : إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله به الخاصة فأمر أن يقرأه معن بن عيسى القزاز عليه فلما بدأ بالقراءة قال مالك ﷺ هارون الرشيد : يا أمير المؤمنين أدركت أهل العلم ببلدنا وإنهم ليحبون التواضع للعلم فترى هارون الرشيد عن المنصة فجلس بين يديه . وسئل مالك ﷺ عن طالب العلم ؟ فقال : حسن جميل ، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه . وكان رحمه الله في تعظيم علم الدين مبالغاً حتى إذا أراد أن يحدث تواضاً وصلى ركعتين وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن في الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث فقليل له في ذلك . فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ هكذا يكون تعظيم العلم ، فالعلماء إذا عظموا العلم عظمهم الله عند الناس وجعل لهم الهبة والوقار في قلوب الملوك ومن دونهم ، فيا أيها الطالب للعلم تواضع له ، فمن تواضع له تواضع الله ، ومن تواضع لله رفعه الله ، فإن التراب لما ذل لأخص القدمين صار طهوراً للوجه كما قال : ﴿ فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ ﴾ [ المائدة : ٦ ] . يا هذا دم على حضور مجلس العلم فالطفل يحتاج كل ساعة إلى الرضاع . فإذا صار رجلاً صبر على الفطام . واعلم أن طريق الفضائل مشحونة بالبلاء ليرجع عنها محنة العزم :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم      ولو عظموه في النفوس لعظما  
أأغرسه عزاً وأجنيه ذلة      إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما

فيا أيها الشاب جوهر نفسك بدراسة العلم وحلها بحلية العمل ، فإن قبلت نصحي لم تصلح إلا لصدر سرير أو لذروة منبر :

تعلم فليس المرء يخلق عالماً      وليس أخو علم كمن هو جاهل  
وإن كبير القوم لا علم عنده      صغير إذا التفت عليه المحافل

[ قيل ] : لما اشتهر مالك ﷺ بالعلم وانتشر صيته وذكره في البلاد حملت إليه الأموال لانتشار علمه فكان يفرقها على أصحابه ، وأصحابه يفرقونها في وجوه الخير موافقة لفعله وما كان يدخرها وكان يقول : ليس الزهد فقد المال ، وإنما الزهد فراغ القلب عنه . وقال أيضاً : ما كان رجل صادقاً في حديثه لا يكذب إلا متعه الله بعقله ولم تصبه عند الهرم آفة ولا خرف . وقال عمر بن أبي سلمة رحمه الله : ما قرأت كتاب الجامع من موطأ مالك إلا أتاني آت في المنام فقال لي : هذا كلام رسول الله ﷺ حقاً . وقيل : إن مالكا ﷺ لما أراد أن يؤلف كتابه بقي

متفكراً في أي شيء يسمي به تأليفه ، قال : فتمت فرأيت النبي ﷺ فقال : وطىء للناس هذا العلم فسمي كتابه الموطأ . وقال عبد الملك بن المبارك : كنا عند مالك ، وهو يحدثنا حديث رسول الله ﷺ فلدغته عقرب ست عشر مرة وهو يتغير لونه ويصفر ، ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ فلما تفرق الناس عنه قلت له : يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجباً . قال : نعم صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ . وقال مصعب بن عبد الله رحمه الله : كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه فقليل له في ذلك ؟ فقال : لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم ما ترون . وكان يكره أن يحدث في الطريق أو وهو قائم أو وهو مستعجل ويقول : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ . وقال الدراوردي رحمه الله : رأيت في المنام أني دخلت مسجد رسول الله ﷺ فرأيت النبي ﷺ يعظ الناس إذ دخل عليه مالك فلما رآه النبي ﷺ قال : إليّ إليّ فأقبل حتى دنا منه فزرع رسول الله ﷺ خاتمه من أصبعه فوضعه في خنصر مالك ﷺ فأولته العلم قد وضعه النبي ﷺ إليه ، وكانت العلماء تقتدي بعلمه ، والأمراء تستضيء برأيه ، والعامّة متقادة إلى قوله فكان يأمر فيمثل أمره بغير سلطان ، ويقول فلا يسأل على دليل قوله ، ويأتي بالجواب فلا يجسر أحد على مراجعته ، ولذلك قال فيه بعض محبيه :

يأتي الجواب فلا يراجع هيبة      والسائلون نواكس الأذقان  
لبس الوقار وعز سلطان التقى      فهو المطاع وليس ذا سلطان

هذه والله صفات العلماء الذين تبكي على فقدهم الأرض والسماء وترحم بهم العباد ، وتؤمن بهم البلاد ؛ فهم العلماء الزهاد أهل الإخلاص والسداد حنت إليهم القلوب ، وانقادت إليهم النفوس ، وذلت لهم الصعاب وخضعت لهم الرؤوس ، فهم في الأقطار كالأقمار والشموس ، لا جرم صار ذكرهم مدوناً في الطروس . وأما من تصنع بالرياء وعمل لأجل الدنيا وغرته أمانيه ، واشتهى أن يمدح بما ليس فيه فذاك من أهل الأذهان المعكوسة ، والأفكار المنكوسة إذا سمعوا ما لا تدركه فهمهم ، وتقصر عنه علومهم فسدت أصولهم والتبس عليهم محصلهم فعملوا بالمعاصي في صور الطاعات ، وجاؤوا بالسيئات في صفات الحسنات ، فخانوا في العمل ، وخابوا في الأمل ، وليس العجب من عامي بجهله قد اقترف ، وبذنبه قد اعترف ، فهو على هدف : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ : [ الأنفال : ٣٨ ] . وإنما العجب ممن يدعي العلوم ، ولطلب الدنيا يروم ، وهو عند الله ملوم ، وعند الناس مذموم ، ومن الأجر محروم ، فهؤلاء اتخذوا دين الله هزواً ولعباً ، وجعلوا المواعظ فرحة وطرباً يسمعون ولا يلقون للقول سمعاً ، ويوعظون فلا يؤثر الوعظ في قلوبهم

صدعاً ، ولا في العيون دمعاً ﴿وَمَنْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ : [ الكهف : ١٠٤ ] . إن سمعوا بدلوا وحرفوا ، وإن وزنوا أو كالوا بنحسوا وطففوا ، هذا والله حرام شرعاً ﴿وَمَنْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ إن تواجدوا بغير عزم ، وإن جادلوا بغير علم ، وإن سألوا بغير فهم لا جرم أنهم بسيوف الجهل صرعى ﴿وَمَنْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ كان مالك ﷺ كثير الصلاة والأذكار ، والأوراد في الأسحار ، والدروس في العلوم والتكرار ، فجاء مدحه على لسان النبي المختار ، ما مدح مالك بذلك ، حتى سلك إليه أصعب المسالك ، واقتحم في طلبه جميع المهالك ، وأنت أيها الغافل في لجة الجهل بارك ، ولأوامر الرب تارك :

|                          |                       |
|--------------------------|-----------------------|
| واحرّ قلبي من العلوم     | من جاهل في الورى ظلوم |
| لم يدّر فيما ادعاه فرقا  | بين صحيح ولا سقيم     |
| بذلت جهدي وحسن قصدي      | والصفو من قلبي السليم |
| غواص فكري ببحر سري       | يحتلب الدر للفهم      |
| واخية السعي إن لم يكن لي | قصد سوى وجهك الكريم   |
| وإن تكن هجرتي لشيء       | سواك يا خيبة القدوم   |
| لله من خلقه خواص         | لهم خصوص من العموم    |
| قد خصهم منه إذ حباهم     | بالفضل من جوده العميم |
| علومهم بالفهم تقرا       | لا بسطور ولا رقوم     |

[ وعن الشافعي رحمه الله ] قال : رأيت على باب مالك دواب من أفراس خراسان جاءت هدية ، وقيل من مصر ، ما رأيت أحسن منها فقلت له : ما أحسن هذه ؟ فقال : هي هدية مني إليك فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها ؟ فقال : إني لأستحي من الله أن أطأ تربة وطأ فيها نبي الله ﷺ بحافر دابة . وكان يحيى بن سعيد رحمه الله يقول : مالك رحمة لهذه الأمة . وقال أبو قدامة : مالك أحفظ أهل زمانه ، وقال أبو عبد الله المتتاب : حفظ مالك مائة ألف حديث . وقال الليث بن سعد : والله ما على وجه الأرض أحبّ إليّ من مالك . وقال : اللهم زد من عمري في عمره . وكان الأوزاعي معظماً للملك ، وإذا ذكره يقول : قال عالم العلماء ، قال عالم المدينة . قال مفتي الحرمين . وقال المثنى بن سعيد القصير : سمعت مالكا يقول : ما بت ليلة إلا رأيت النبي ﷺ فيها .

[ فأما ذكر وفاته ] فقال ابن القاسم رحمه الله عليه : كنا عند مالك في مرضه الذي مات فيه فدخل ابن الدراوردي ، فقال : يا أبا عبد الله رأيت البارحة رؤيا أسمعها مني ؟ فقال : قل ،

قال : رأيت رجلاً ينزل من السماء عليه ثياب بيض ويده سجل ينشره ما بين السماء والأرض ثلاث مرات يقول : هذه براءة لمالك من النار فبينما أنا أحدثه إذ دخل عليه رسول الأمير ، فقال : يا أبا عبد الله إن مؤذن مسجد المدينة رأى البارحة رؤيا فسمعتها منه فقصّ عليه مثل ذلك ، فقال مالك : الله المستعان ما شاء الله كان ، وعن أبي زكريا قال : سمعت الشافعي ؓ يقول : قالت لي عمتي ونحن بمكة رأيت في هذه الليلة رؤيا قلت : وما هي ؟ قالت : رأيت فلاناً يقول : مات الليلة أعلم أهل الأرض فحسبنا ذلك اليوم الذي مات فيه مالك .

[ وقال يونس بن عبد الأعلى ] : سمعت بشر بن بكر يقول : رأيت الأوزاعي في المنام مع جماعة من العلماء في الجنة . فقلت له أين مالك ؟ فقليل : رفع . قلت : بماذا ؟ قال : بصدقه ورأى بعض الصالحين مالكا بعد موته في المنام فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قال : بماذا ؟ قال : بكلمة سمعتها من عثمان أنه كان إذا رأى ميتاً يقول : الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، سبحان الحي الذي لا يموت ، فأدمت قوها فأدخلني الله الجنة .

[ وقال عبد العزيز ] : توفي مالك ؓ لعشرة أيام خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ، ومرض يوم الأحد ، ومات يوم الأحد ، وعاش تسعين سنة ، وأوصى أن يكفن في بعض ثيابه ، ويصلى عليه بموضع الجنائز فصلّى عليه أكثر الناس ، فمن ذلك ابن عياش وهاشم وابن كنانة ، وشعبة بن داود وكتابه حبيب وابنه ، ونزل جماعة في قبره وأنشد أبو عمار الأرجواني في مالك ، وفي موطئه :

|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| لقد بان للناس الهدى غير أنهم   | غدوا بجلايب الهوى قد تجلبوا    |
| فلو أحدثت في بلدة الصين بدعة   | رأيت إليها السفن في البحر تركب |
| فمن رام أن ينجو بمهجة نفسه     | فلا يعد ما تحوي من العلم يشرب  |
| أنترك داراً كان بين بيوتها     | يروح ويغدو جبرئيل المقرب       |
| وكان رسول الله فيها وبعده      | بسته أصحابه قد تأدبوا          |
| وفرق سبل العلم في تابعيهم      | فكل امرئ منهم له فيه مذهب      |
| فخصه بالسبك للناس مالك         | ومنه صحيح في المجلس وأجرب      |
| فأبرى بتصحيح الرواية داءه      | وتصحيحها عنه دواء مجرب         |
| ولم يؤت هذا العلم من غير أهله  | وفي قلة التمييز بالعلم معطب    |
| أيا طالباً العلم إن كنت طالباً | حقيقة علم الدين محضاً وترغب    |
| فبادر موطأ مالك قبل فوته       | فما بعده إن فات للعلم مطلب     |
| ودع للموطأ كل علم تريده        | فإن الموطأ الشمس والعلم كوكب   |

هو الحق عند الله بعد كتابه  
هو الأصل طاب الفرع منه لطيه  
لقد أعربت آثاره بثباتها  
ومما به أهل الحجاز تفاخروا  
وكل كتاب بالعراق مؤلف  
ومن لم يكن هذا الموطن في بيته  
ولو بالموطن يعمل الناس كلهم  
جزى الله عنا في الموطن مالكا  
فقد جاد بالإحسان في كل ما روى  
لقد رفع الرحمن بالعلم قدره  
لقد فاق أهل العلم شرقاً ومغرباً  
وما فاقهم إلا بتقوى وخشية  
فلا زال يسقي قبره كل عارض  
ويسقي قبوراً جاورته كسقيه  
وما فيه بخل إذ سقاهاهم بسقيه

وفيه لسان الصدق بالحق معرب  
ولم لا يطيب الفرع والأصل طيب  
فما إن لها في العالمين مكذب  
بأن الموطن في العراق محب  
تراه بأثار الموطن يعصب  
فذاك من التوفيق بيت مخيب  
لأمسوا وما منهم على الأرض مذنب  
بأفضل ما يجزي اللبيب المهذب  
كذا فعل من يخشى الإله ويرغب  
غلاماً وكهلاً ثم إذا هو أشيب  
فأضحت به الأمثال في الناس تضرب  
وإذ كان يرضى في الإله ويغضب  
من العفو إذا يهمني عليه ويكسب  
فيصبح فيها نبتها وهو معشب  
ولكن حق العلم أولى وأوجب

ولما بلغ أهل العراق موت مالك ارتجت له العراق وعظمت مصيبتهم بموته ، وقال رجل  
لسفيان بن عيينة : يا أبا محمد رجل أراد أن يسأل عن مسألة رجلاً من أهل العلم يكون له  
حجة بينه وبين الله تعالى . فقال : مالك ممن يجعله الرجل حجة بينه وبين الله تعالى ، فقليل له :  
قد مضى مالك ؟ فقال : هيهات ذهب الناس .

[ وأما زهده في الدنيا ] فقد كان زاهداً فيها راغباً في الآخرة مجتهداً في العلم ونصيحته  
للمؤمنين . وسأله المهدي أمير المؤمنين ، وقال له : هل لك دار ؟ فقال : لا ولكن أحدثك :  
سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره . وسأله الرشيد : هل لك دار ؟  
فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال له : اشتر لك بها داراً فأخذها ولم ينفقها ، فلما  
أراد الرشيد الرحيل إلى بغداد ، قال له : ينبغي لك أن تخرج معنا فإني عزم على أن أحمل  
الناس على الموطن كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن فقال له : أما حمل الناس على الموطن  
فليس إلى ذلك سبيل ، لأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل  
مصر علم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اختلاف أمتي رحمة » وأما الخروج معك فلا سبيل إليه  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » ، وقال : « المدينة تنفي خبثها كما

ينفي الكير خبث الحديد » وهذه دنائركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها ، يعني أنك إنما كلفتني مفارقة المدينة بما اصطنعته لدي من أخذ هذه الدنانير فالآن خذها فإني لا أؤثر الدنيا وما فيها على مدينة النبي ﷺ .

[ وقال بعض الصالحين ] : رأيت في النوم أني دخلت الجنة فرأيت في وسطها عموداً من نور ورأيت أربعة يجرونه بأربعة سلاسل من جهاته الأربع وهو ثابت لا يتغير من مكانه فقلت : يا الله العجب لو جرّه هؤلاء من جهة واحدة لكان أسهل عليهم فسألت بعض الملائكة عن ذلك ، فقال لي : هذا العمود هو دين الإسلام وهذه الأربع سلاسل المذاهب الأربعة وهؤلاء الذين يجرونه هم أئمة الإسلام الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ومالك رضي الله عنهم أجمعين فاتفقهم فرض ، وقولهم حق واختلافهم رحمة للمسلمين :

|                           |                             |                             |
|---------------------------|-----------------------------|-----------------------------|
| هم الفقهاء والعلماء حقاً  | وعنهم في البرايا فارو ذكرا  | وهم أهل التقوى والدين فاعلم |
| وعنهم فاستمع خبراً وخبراً | فهم أهل الهداية حيث كانوا   | ومنهم تكتسى الأكوان عطرا    |
| بهم تحمى البلاد ومن عليها | من أسباب الردى برأ وبجرا    | فكل منهمو في الخلق أضحي     |
| لقلب الحائر المسكين جبراً | إذا وفاهم المضني فيشفى      | وإن مرّ السقيم بهم فيبرأ    |
| وإن وافي الفقير إلى حماهم | تراه بنيل فضل العلم يشرى    | وإن نامت عيون الخلق قاموا   |
| يراعون الدجى سهراً وفكراً | فهم في الليل في استغراق فكر | إذا اضطجعوا وما ينجشون نكرا |
| وجدوا في تصانيف إليها     | تشد رحال أهل الأرض طرا      | فذكرهمو يعطر كل أرض         |
| ونشرهمو بطيب المسك أزرى   | فإن وجدوا فللدنيا ابتهاج    | وإن فقدوا أعيد العيش مرا    |
| وكلهمو بدين الله حقاً     | وسنة أحمد المختار أدرى      | أجلّ العالمين رسول صدق      |
| به الرحمن جنح الليل أسرى  | هو الهادي البشير ومن هدايا  | لدين قد سما شرفاً وقدر      |

شفاعته لأرباب الخطايا رأوها عند رب العرش ذخرا

عليه من المهيمن كل وقت صلاة تملأ الأقطار نشر

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

## المجلس الأربعون

### في مناقب الإمام أحمد بن حنبل ؓ

الحمد لله الذي أوضح الطريق إلى معرفته لكل سالك ، توحد بالكبرياء والعظمة والممالك ،  
إله لا وزير له ولا صاحبة ولا مشارك ، صمد ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا فان ولا

هالك ، يعلم ما كان وما يكون وما يخطر ببالك ، بصير يبصر أغذية الجنين من البطون في ظلمة الأحشاء في سواد الليل الحالك ، سميع يسمع دعاء كل داع وما تتحرك به شفتاك من ألفاظك وأقوالك ، مريد لما كان من خير وشر وما يكون بعد ذلك ، استوى على العرش كما قال لا كما يخطر ببالك ، لا بنزول ولا بحركة ولا انتقال ومهما خطر في النفس كان الله بخلاف ذلك ، فهذا اعتقاد البشر وهو الذي اتفق عليه أبو حنيفة وأحمد والشافعي ومالك ، فقم أيها العاصي ، وتذل لمالك النواصي ، وأقبل بافتقارك واشك حالك إليه فهو أعلم بحالك ، أحده على السراء والضراء وأشكره في الشدة والرخاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العزة والبقاء ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أبي بكر وعمر وعثمان وعلى السادة الأتقياء .

[ قال إدريس الحداد ] : كان الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله صاحب رواية في الحديث ليس في زمانه مثله :

وأحمد المعروف في كل مشهد      وقد رفع الله العظيم له قدرا  
وأتاه علماً في الورى ومهابة      وجاد عليه بالكرامة في الأخرى

وكانت له حالة الصالحين وشعار المؤمنين . قال : وكان له على ولده عبد الله رغيف خبز وشيء من الأدم ، فلما ولي ولده القضاء امتنع عن قبول الرغيف ، وقال : والله لا أكل له طعاماً أبداً . وكان كما قال إلى أن مات ، وقال إدريس الحداد : ما رأيت أحمد قط إلا مصلياً أو يقرأ في المصحف أو كتاب ، ما رأيته في شيء من أمور الدنيا ، قال : وكان إذا اشتد به الأمر بقي اليوم واليومين والثلاث لا يأكل شيئاً فإذا رأى أهله شرب الماء يوههم أنه شعبان .

[ وقال المروزي ] : لما حبس أحمد بن حنبل في سجن الوراق على أن يقول إن القرآن مخلوق جاءه السجن يوماً ، فقال له : يا أبا عبد الله الحديث الذي يروى في الظلمة وأعوانهم صحيح ؟ قال : صحيح ، قال السجن : فإني من أعوان الظلمة . قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أعوان الظلمة الذي يأخذ شعرك ويغسل ثوبك ويصلح طعامك وأما أنت فمن الظلمة . قال إدريس الحداد : لما زالت المحنة وصرف أحمد إلى بيته حمل إليه مال كثير جزيل وهو محتاج إلى أيسره فرد جميع ذلك ولم يقبل منه قليلاً ولا كثيراً فجعل عمه إسحاق يسحب ما رده في ذلك اليوم فكان خمسين ألف دينار ، فقال له أحمد : يا عم أراك مشغولاً بحساب ما لا يفيدك . فقال له : قد رددت اليوم كذا وكذا وأنت محتاج إلى حبة . قال : يا عم لو طلبناه لم يأتنا إنما أتانا لما تركناه . وقال علي بن سعيد الرازي : سرنا مع أحمد بن حنبل يوماً إلى باب المتوكل ، فلما أدخلوه من باب الخاصة . قال لنا أحمد : انصرفوا عافاكم الله فما مرض منا أحد بعد ذلك

اليوم ببركة دعائه . وقال هلال بن العلاء : أربعة لهم على الإسلام منة أحمد بن حنبل حيث ثبت على المحنة ولم يقل بخلق القرآن ، وأبو عبد الله الشافعي حيث بنى الفقه على الكتاب والسنة ، وأبو عبد الله القاسم بن سلام حيث فسر حديث النبي ﷺ ، وأبو زكريا حيث بين الصحيح من السقيم . وقال محمد بن موسى : حمل إلى الحسين بن عبد العزيز ميراثه من مصر وكان مبلغاً عظيماً فحمل منه إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أكياس في كل كيس ألف دينار . وقال له : يا أبا عبد الله استعن به على عيالك ، فقال : لا حاجة لي بها أنا في كفاية من الله تعالى وردها عليه ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : كان أبي يقرأ كل ليلة سبع القرآن ويختم في كل سبعة أيام ختمة ثم يقوم إلى الصباح وكان يصلي في كل يوم ثلاثمائة ركعة . فلما ضرب بالسياط أضعفه ذلك فكان يصلي في كل يوم مائة وخمسين ركعة . وكان له في الليل ثلاث هدآت وثلاث صيحات . قال : وكان ذات يوم جالساً عند الشافعي فمرّ بهما شيبان الراعي عليه مدرعة صوف ، فقال أحمد للشافعي : يا أبا عبد الله ألا أنبه هذا الجاهل على جهله ؟ فقال له الشافعي : لا تفعل دعه في شأنه . فقال أحمد : لا بدّ ، ثم إنه استحضر شيبان وقال له : يا شيبان ما تقول في رجل نسي صلاة من يوم لا يدري أيّ صلاة هي ما الواجب عليه أن يفعل ؟ فقال شيبان : يا أحمد هذا رجل غفل قلبه عن الله فهو ساه غافل : الواجب عليه أن يؤدب حتى لا يرجع إلى مثلها أبداً ، ثم بعد ذلك يقضي صلاة اليوم أجمع ثم التفت إليهما وقال : هل تقدّران أن تردّا عليّ قال : فصاح أحمد وقال : لا والله بل هذا هو الحق ثم تركهما وانصرف . وقال إدريس : كان أحمد لا يلبس ثوباً مكفوفاً بل كان يشلله ويقور وسطه ويتركه في رأسه ويقول هذا لمن يموت كثير . قال : وكان أكثر مؤنّته من نبات الأرض ويقول : هذا والله هو الحلال الذي ليس له حساب ولا تبعة . قال : وكان يوماً جالساً وعنده جماعة نساء من أصحابه فجاءت إليه امرأة . وقالت له : يا سيدي إنا جماعة نساء نقعد على سطوحنا بقطن الغزل فيمرّ بنا مشاعل أهل الشرطة أفيجوز لنا أن نغزل في ضوئها وشعاعها ، فقال لها أحمد : من أنت ؟ فقالت له : أنا أخت بشر الحافي ، فقال لها أحمد : من بيتكم خرج الورع لا تغزلي في ضوئها . وقال إدريس الحداد : لما دخل أحمد بن حنبل مكة للحج عسر عليه بعض حوائجه فأخذ سطلاً كان معه فدفعه إلى بعض البقالين رهناً على شيء يأخذه . فلما فتح الله عليه بفكاكه حضر عند ذلك البقال فدفع له ما كان له وطلب السطل . فقام البقال وأحضر سطلين على هيئة واحدة . وقال : قد اشتبه عليّ سطلك فخذ أيهما شئت . فقال أحمد : وأنا أشكل عليّ أيهما لي والله لا أخذته ، فقال البقال : وأنا لا أتركه أبداً فاتفقا على بيعه والتصدق به . قال : وكان إذا شهد جنازة لم يفطر ذلك اليوم ولم ينم تلك الليلة وكان إذا رأى قبراً يصرخ كما تصرخ الثكلى قال :

وخرج يوماً من داره فوقع نظره على امرأة مكشوفة الوجه ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحلف أن لا يخرج إلا مغطى الوجه لئلا يبصر أحداً . وكان إذا وقعت الحادثة أو المسألة لا يكتبها حتى يوردها على الفقهاء فإن وافق رأيهم رأيه كتبها وإلا تركها واستغفر الله مما خطر بباله قال : وكان من زهده وورعه إذا جف القلم بيده مسح في رأسه ولم يمسحه في ثوبه فقليل له في ذلك فقال : أن هذا مداد أثر العلم فلا أضعه في خرقة لعلها ترمى في نجاسة .

وقال محمد بن موسى : ولد أحمد بن حنبل في سنة أربع وستين ومائة ومات وهو ابن سبع وسبعين سنة ودفن يوم الجمعة بعد الصلاة وحشر الناس لجنائزته وصلى عليه محمد بن عبد الله ابن طاهر وحسبوا من صلى عليه ذلك اليوم فكانوا ثمانمائة ألف رجل وستين ألف امرأة ومسح الموضع الذي صلى عليه فيه فكان أربعاً وستين جريباً مكسرة وجلس المتوكل ، وقيل الواثق وأمر القواد والخاصة أن يعزّوه قال : وكان أحمد بن حنبل أزهد أهل زمانه وأورعهم وأفقههم وأتقاهم وأعرفهم بحديث النبي ﷺ وأخبر بصحيحها من سقيمها وأعلم برجال الحديث والصادق منهم والمتحل وقد روى ألف ألف حديث منها بالأسانيد والمتون مائة ألف وخمسون ألفاً . وقد روي أنه لما ضرب وجرى عليه ما جرى وثبت إلى المحنة حبه ذلك إلى أهل الشرق والغرب ، ولم يزل أحمد بن حنبل بعد ذلك في رفعة وعلو وزيادة في أعين الناس حتى إذا رأوه كأنهم رأوا أسداً . قال : ودخل عليه مجاهد في مرضه الذي مات فيه وهو يجود بنفسه فبكى وقال له : يا أبا عبد الله أوصني فأشار إلى لسانه وقال : ﴿ لِيُمِثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ : [ الصافات : ٦١ ] . ثم مات رحمه الله عليه :

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| وللحافظ المعروف بالحفظ والتقوى | وفخر عليه فيالله فخر ابن حنبل |
| هو العلم المضروب ظلماً ولم يحل | عن الحق يوماً من عذاب به بلي  |
| رأى الله رب العرش تسعين مرة    | وتسع مرار هكذا صح فانقل       |
| وقال لئن أكملتها مائة لأسألن   | وقد كان الذي فيه يأتلي        |
| ولم يدخر قوتاً سوى قوت يومه    | وكان له في الله خير توكل      |
| لقد فك منه عند ضرب لباسه       | ولم تبد عورات لما منه قد تلي  |
| فهذا الذي قلناه من بعد ما جرى  | تلخص قولاً من كلام مطول       |
| فهم علماء المسلمين وذكرهم      | إلى آخر الدنيا بغير تحزل      |
| سقى الله رب العرش منهم مضاجعاً | كما قمعوا عن دينه كل مبطل     |
| وأدوا عن الله المهيمن دينه     | بأحسن أسلوب وأحلى تسلسل       |
| إلهي كما أرشدتنا لطريقهم       | علينا إله الحق عفوك أنزل      |

وَمِنْ فِتْنِ الدُّنْيَا أَجْرُنَا تَكْرَمًا وَمَنْ كُلُّ هَوْلٍ فِي الْمَعَادِ مَهُولٌ  
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا .

## الجلس الحادي والأربعون

### في مناقب الصالحين رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي رفع السماء بقدرته ، وأدار دوائر الأفلاك وبسط الأرض بمشيئته ، ومهد لها للسلاك ، وسخر الفلك ومهد الملك ، ودبر الأملاك ، الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم الذي خلق الموت والحياة ، وقدر النجاة والهلاك القديم الخلاق ، الذي له الخلق والأمر ، ويده الإطلاق والإمساك ، الذي أنشأ اللوح والقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، ووهب له العقل الكامل والفهم والإدراك ، منقذ الغرقى من لجج البحار بعد معاينة الأخطار والهلاك ، ومنجي الهلكى بعد انقطاع الحيل والاستدراك ، ومطلق الأسرى من القيود الشديدة الوثاق ، ومسعفهم بالإطلاق والفكاك ، الغني عن العباد يأمرهم بالطاعة والإيمان ، ولا يرضى لهم الكفر والإشراك ، الذي لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية ، وإنما يأمرك أيها العاصي بطاعته وعن معصيته ينهاك ، ليريك بعين يقينك ويبين لك أمر دينك ودينك ، فراقبه واتقه واحذر من معاصيه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وحافظ على الصلوات التي بها أمرك وأوصاك ، وقف بين يديه في الأسحار بالذلة والانكسار وقد جاد عليك بنعمه الغزار وبلغك مقصودك ومناك ، أما أحسن منشاك ومرباك ، أما أعزك وأكرم مثواك ، أما أهلكم رشداً وتقواك ، أما وهب لك العقل وإلى الإيمان هداك ، أما خولك في نعمه وأعطاك ، أما أمرك بطاعته ووصاك ، أما حذرك عن معصيته ونهاك ، أما دعاك إلى بابه وناداك ، أما أيقظك في السحر بلطف خطابه وناجاك ، أما وعدك بالفوز والجزاء في أخراك ، أما سألته ودعوته فأجاب سؤالك ودعاك ، أما استغثت به في الشدائد فأعاثك منها ونجاك ، أما عصيته فسترك بذيل حلمه وغطاك ، أما أغضبته مراراً وأرضاك ، أفستحق منك أن تبارزه بذنوبك وخطاياك ، ويمدك برزقه وتمد إلى معصيته خطاك ، وتستخفي من الناس ولا تستخفي من الله وقد شاهدك وراك ، إلى متى أنت غريق في بحر غيك وهواك ، إن أردت النجاة فاركب سفينة الندم واقلع بريح التوبة إلى مولاك ، وألق نفسك إلى ساحل الإخلاص وقد جاد عليك بالإخلاص ونجاك .